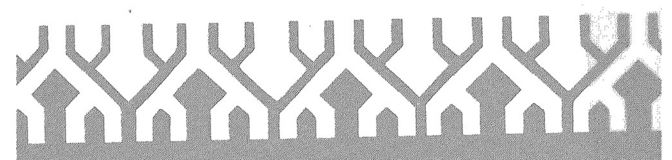
الدرر السنية

في

الرد على الوهابية

تأليف

العالم العلامة من آل بيت النبوة
السيد أحمد بن السيد زيني دحلان



الناشر
دار جوامع الكلم
١٧ شارع الشيخ صالح الجعفري - الدراسة - القاهرة

إهـــــــداء2005

أ/إبراهيم منصور غنيم

القاهرة

الدرر السنية

في

الرد على الوهابية

تأليف

العالم العلامة من آل بيت النبوة
السيد أحمد بن السيد زيني دحلان

الناشــــــر
دار جوامــع الكلــم
١٧ شارع الشيخ صالح الجعفــرى
الدراسة - القاهــرة

كلمـــة الناشـــر

بســم الله الرحمن الرحيم

حمدا للمولى عز وجل على نعمة الاسلام وكمال الإيمان .
والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد الرحمة المهداة والنعمة المسداة والسراج المنير وعلى آله وصحبه وسلم ورضى الله عن شيخنا سيدى صالح الجعفرى وأرضاه ، وجعل الجنة متقلبه ومثواه .

ونحن معك فى هذا اللقاء الروحى نؤكد لك إصرار مكتبتنا دار جوامع الكلم على القيام برسالتها التى أنشئت من أجلها وهى خدمة تراثنا الاسلامى ، وبخاصة تراث سيدنا ومولانا الشيخ صالح الجعفرى رضى الله عنه وسائر أهل البيت وكبار العلماء ، ونشر مافيه نفع المسلمين المحبين لله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم والأولياء والصالحين والدفاع عن عقيدة أهل السنة والجماعة التى سار عليها الصالحون فى كل

عصر وجيل ، والتـزمهـا علماء الأمـة المخلصون فى شرق البلاد الاسلامية وغربها .

ويطيب لنـا فى هذا اللقـاء أن نقـدم إليك هذا الكتاب المبارك الذى ألفه عالم جليل من ذرية أهل البيت رضوان الله عليهم أجمعين ، وهو كتاب جليل يدافـع عن عقيدة أهـل السنـة بالحجـج السـاطعة والبراهين القاطعة ويقف سدا منيعا فى مواجهة فكر المنكرين والمنحرفين ألا وهو كتاب (الدرر السنية فى الرد على الوهابية) وهو على ايجازه يغنى عن المطولات فى هذا الشأن لأن مؤلفه رضى الله عنه حرص على جمع الفوائد وعرضها دانية القطوف ليستفيد بها عامة المسلمين وخاصتهم فجزاه الله عن عقيدة أهل السنة خير الجزاء ، وأدام الله النصر والتمكين لتلك العقيدة إلى يوم الدين .

الناشـــر

مكتبة دار جوامع الكلم

١٧ ش الشيخ صالح الجعفرى بالدراسة

تعريف بمؤلف الكتاب

هو العالم العلامة السيد أحمد بن السيد زينى دحلان من آل بيت النبوة الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا ، ومن الذين حرروا العلوم تحريراً وهو من العلماء العاملين الناصحين البازل همته ونفسه وماله فى تربية المريدين وتعليمهم ماينفعهم من أمور الدنيا والدين .

كان شيخا للاسلام بالمسجد الحرام ، وتخرج على يديه كثير من طلاب العلم وتاب على يديه كثير من أجلاف العرب المذنبين ، وله تآليف عديدة فى مختلف العلوم منها السيرة النبوية ، والفتوحات الاسلامية ، والفتح المبين فى سيرة الخلفاء الراشدين ، وله حاشية على السمرقندية فى علم البيان وحاشية على الأظهار فى التجويد ، وشرح على ألفية ابن مالك فى النحو ، وله رسالة فى علم الوضع ، وفى علم الجبر والمقابلة ، ورسالة فى وعيد تارك الصلاة ، ومتن صغير فى علم البيان ، ورسالة فى مباحث البسملة ، ورسالة فى

صيغ الصلوات على النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، ورسالة تتعلق بـ (جاء زيد) ورسالة تتعلق برؤية البارى عز وجل ، وله هذا التأليف المبارك فى الرد على الوهابية ، ولـه غير ذلـك من الـرسائل والمؤلفات والشروح والحواشى . رحمه الله رحمة واسعة وجزاه عن الاسلام والمسلمين خير الجزاء .

عَلَيْكُمْ بسنَّتى وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ مِنْ بَعْدِى

(حديث شريف)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الواحد الاحد الذى فضل سيدنا محمــدا صلى الله عليه وآلـه وسلم على سائـر المخلوقات ، وشرّف أمته على سائر الأمم وأعلى لهم الـدرجـات ، وعلى آله وأصحابه المقتفين آثاره ومن تبعهم فى جميع الحالات والاوقات .

أمـا بعد : فيقول العبد الفقير خادم طلبة العلم بالمسجد الحرام ، كثير الذنوب والآثام ، المفتقـر إلى ربـه المنـان : « أحمـد بن زينى دحـلان » غفر الله له ولوالديه ومشايخه ومحبيه والمسلمين أجمعين يارب العالمين :

قد سألنى من لا تسعنى مخالفته أن أجمع له ما تمسك به أهل السنة فى زيارة النبىّ صلى الله

عليه وآله وسلم والتوسل به من الدلائل والحجج القوية من الآيات والأحاديث النبوية ، وما ورد فى ذلك عن السلف والعلماء والأئمة المجتهدين ، ليكون ذلك مبطلا إنكار المنكرين ، فجمعت له هذه الرسالة من كتب كثيرة ، واختصرتها غاية الاختصار اعتمادا على ما هو مبسوط فى كتب العلماء الأخيار ، فأستعين الله وأقول :

بيان حكم زيارة قبر النبى ﷺ

اعلم رحمك الله ان زيارة قبر نبينا صلى الله عليه وآله وسلم مشروعة مطلوبة بالكتاب والسنة وإجماع الأمة .

أما الكتاب فقوله تعالى (ولو أنهم إذ ظلموا

أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما) دلت الآية على حثّ الأمة على المجيء إليه صلى الله عليه وآله وسلم والاستغفار عنده واستغفاره لهم وهذا لا ينقطع بموته ، ودلت أيضا على تعليق

وجدانهم بالله تواباً رحيما بمجيئهم واستغفارهم واستغفار الرسول لهم . فأما استغفاره صلى الله عليه وآله وسلم فهو حاصل لجميع المؤمنين بنص قوله تعالى (واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات) وصح فى صحيح مسلم أن بعض الصحابة فهم من الآية ذلك المعنى الذى دلت عليه هذه الآية ، فإذا وجد مجيئهم واستغفارهم فقد تكملت الأمور الثلاثة الموجبة لتوبة الله تعالى ورحمته ، وسيأتى فى الأحاديث الآتية ما

يدلّ على أن استغفاره صلى الله عليه وآله وسلم لا يتقيد بحـال حياتـه ، وقـد علم من كمال شفقتـه صلى الله عليه وآلـه وسلم أنه لا يترك ذلك لمن جاءه مستغفرا ربه سبحانه وتعالى ، والآية الكـريمة وإن وردت فى قوم معينين فى حال الحياة تعمّ بعموم العلة كلّ من وجد فيه ذلك الوصف فى حال الحياة وبعد المات ولذلك فهم العلماء منهـا العموم للجائين ، واستحبوا لمن أتى قبره صلى الله عليه وآله وسلم أن يقرأها مستغفرا الله تعالى واستحبوها للزائر ورأوها من آدابه التى يسن له فعلها ، وذكرها المصنفون فى المنـاسـك من أهل المذاهب الأربعة . ودلت الآية أيضـا على أنه لا فرق فى الجائى بين أن يكون مجيئه بسفر أو غير سفر لوقوع « جاءوك »

فى حيز الشرط الدالّ على العموم وقد قال الله تعـالى (ومن يخرج من بيتـه مهـاجـرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله) ولا شكّ عند من له أدنى مسكة من ذوق العلم أن من خرج لزيارة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يصـدق عليه أنـه خرج مهاجراً إلى الله ورسـوله لما يأتى من الأحاديث الدالة على أن زيارتـه صلى الله عليه وآلـه وسلم بعـد وفـاته كزيارتـه فى حياتـه وزيارته فى حياته داخلة فى الآية الكـريمـة قطعا ، فكذا بعد وفاته بنصّ الأحاديث الشريفة الآتية .

وأما السنة فما يأتى من الأحاديث .

وأمـا القياس فقـد جاء أيضا فى السنـة الصحيحـة المتفق عليها الأمر بزيارة القبور ،

فقبر نبينا صلى الله عليه وآله وسلم منها أولى وأحرى وأحقّ وأعلى ، بل لا نسبة بينه وبين غيره ، وأيضا فقد ثبت أنه صلى الله عليه وآله وسلم زار أهل البقيع وشهداء أحد ، فقبره الشريف أولى لما له من الحقّ ووجوب التعظيم ، وليست زيارته صلى الله عليه وآله وسلم إلا لتعظيمه والتبرّك به ولينال الزائر عظيم الرحمة والبركة بصلاته وسلامه عليه صلى الله عليه وآله وسلم عند قبره الشريف بحضرة الملائكة الحافّين به صلى الله عليه وآله وسلم .

وأما إجماع المسلمين فقد قال العلامة ابن حجر فى [الجوهر المنظم فى زيارة قبر النبىّ المكرم صلى الله عليه وآله وسلم] : قد نقل جماعة من الأئمة حملة الشرع الشريف الذين

عليهم المدار والمعوّل الإجماع ، وإنما الخلاف بينهم فى أنها واجبة أو مندوبة ، فمن خالف فى مشروعية الزيارة فقد خرق الإجماع .

واحتج القائلون بوجوب الزيارة بقوله صلى الله عليه وآله وسلم « من حج البيت ولم يزرنى فقد جفانى » رواه ابن عدى بسند يحتج به ، قال : وجفاؤه صلى الله عليه وآله وسلم حرام ، فعدم زيارته المتضمن لجفائه حرام .

وأجاب الجمهور القائلون بندب الزيارة بأن الجفاء من الأمور النسبية ، فقد يقال فى ترك المندوب إنه جفاء إذ هو ترك البر والصلة ، ويطلق أيضا على غلظ الطبع والبعد عن الشىء ، فأكثر العلماء من الخلف والسلف على ندبها دون وجوبها ، وعلى كل من القولين

فالـزيارة ومقـدمتهـا من نحـو السفر من أهم القربات وأنجح المساعى .

ويدل لذلك أحاديث كثيرة صحيحة صريحة لا يشك فيها إلا من انطمس نور بصيرته ، منها قوله صلى الله عليه وآله وسلم « من زار قبرى وجـبـت له شفـاعتى » وفى رواية « حلت له شفـاعتى » رواه الـدارقـطنى وكثـير من أئمة الحديث ، وقد أطال الإمام السبكى فى كتابه المسمى [شفاء السقام فى زيارة خير الأنام] فى بيان طرق هذا الحديث وبيان من صححه من الأئمـة ، ثم ذكـر روايات فى أحاديث الزيارة كلهـا تؤيد هذا الحـديث ، منهـا رواية « من زارنى بعد موتى فكأنما زارنى فى حياتى » وفى رواية « من جاءنـى زائـراً لا تهمـه حاجـة

إلا زيارتى كان حقا علىّ أن أكون له شفيعا يوم القيامة » وفى رواية « من جاءنى زائرا كان له حق على الله عز وجل أن أكون له شفيعا يوم القيامة » وفى رواية لأبى يعلى والدارقطنى والطبرانى والبيهقى وابن عساكر « من حج فزار قبرى » وفى رواية « فزارنى بعد وفاتى عند قبرى كان كمن زارنى فى حياتى » وفى رواية « من حج فزارنى فى مسجدى بعد وفاتى كان كمن زارنى فى حياتى » وفى رواية « من زارنى إلى المدينة كنت له شفيعاً وشهيداً ومن مات بأحد الحرمين بعثه الله من الآمنين يوم القيامة » رواه بهذه الزيادة أبو داود الطيالسى . ثم ذكر أحاديث كثيرة كلها تدل على مشروعية الزيارة لا حاجة لنا إلى الإطالة بذكرها ، فتلك

الأحاديث كلها مع ما ذكرناه صريحة فى ندب بل تأكيد زيارتــه صلى الله عليه وسلم حيا وميتـا للذكــر والأنـثى . وكــذا زيارة بقية الأنبياء والصالحين والشهداء .

والـــزيارة شاملة للسفـــر لأنها تستـــدعى الانتقـال من مكـان الزائر إلى مكان المزور ، كلفظ المـــجـــىء الـــذى نصـــت عليه الآية الكريمة ، وإذا كانت كل زيارة قربة كان كل سفـر إليها قربة ، وقد صح خروجه صلى الله عليه وآلـه وسلم لزيارة قبـور أصحابه بالبقيع وبأحد . فإذا ثبت مشروعية الانتقال لزيارة قبر غيره صلى الله عليه وآلـه وسلم فقبره الشريف أولى وأحرى . والقاعدة المتفق عليها أن وسيلة القـربـة المتـوقفـة عليها قربة : أى من حيث

إيصالها إليها ، فلا ينافى أنه قد ينضمّ إليها محرم من جهة أخرى كمشى فى طريق مغصوب .

وأقوال العلماء صريحة فى أن السفر للزيارة قربة مثلها ، ومن زعم أن الزيارة قربة فى حق القريب فقط فقد افترى على الشريعة الغرّاء فلا يعوّل عليه .

وأما تخيل بعض المحرومين أن منع الزيارة أو السفر إليها من باب المحافظة على التوحيد وأن ذلك مما يؤدى إلى الشرك فهو تخيل باطل ، لأن المؤدّى إلى الشرك إنما هو اتخاذ القبور مساجد أو العكوف عليها وتصوير الصور فيها ، كما ورد فى الأحاديث الصحيحة ، بخلاف الزيارة والسلام والدعاء ، وكل عاقل يعرف الفرق

بينهما . ويتحقق أن الزيارة إذا فعلت مع المحافظة على آداب الشريعة الغراء لا تؤدى إلى محذور ألبته ، وأن القائل بالمنع منها سدا للذريعة متقول على الله وعلى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم .

وهنا أمران لابد منهما :

أحدهما وجوب تعظيم النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ورفع رتبته عن سائر الخلق .

والثانى إفراد الربوبية واعتقاد أن الرب تبارك وتعالى منفرد بذاته وصفاته وأفعاله عن جميع خلقه

فمن اعتقد فى مخلوق مشاركة البارى سبحانه وتعالى فى شىء من ذلك فقد أشرك ،

ومن قصر بالرسول صلى الله عليه وآله وسلم عن شىء من مرتبته فقد عصى أو كفر ، ومن بالغ فى تعظيمه صلى الله عليه وآله وسلم بأنواع التعظيم ولم يبلغ به ما يختص بالبارى سبحانه وتعالى فقد أصاب الحق وحافظ على جانب الربوية والرسالة جميعا ، وذلك هو القول الذى لا إفراط فيه ولا تفريط .

وأما قوله صلى الله عليه وآله وسلم « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ومسجدى هذا والمسجد الأقصى » فمعناه أن لا تشد الرحال إلى مسجد لأجل تعظيمه والصلاة فيه إلا إلى المساجد الثلاثة ، فإنها تشد الرحال إليها لتعظيمها والصلاة فيها وهذا التقدير لابد منه ، ولو لم يكن التقدير هكذا

لاقتضى منع شد الرحال للحج والجهاد والهجرة من دار الكفر ولطلب العلم وتجارة الدنيا وغير ذلك ، ولا يقول بذلك أحد .

قال العلامة ابن حجر فى [الجوهر المنظم] ومما يدل أيضا لهذا التأويل للحديث المذكور التصريح به فى حديث سنده حسن وهو قوله صلى الله عليه وآله وسلم « لا ينبغى للمطى أن تشد رحالها إلى مسجد يبتغى الصلاة فيه غير المسجد الحرام ومسجدى هذا والمسجد الاقصى » .

وبالجملة فالمسئلة واضحة جلية قد أفردت بالتأليف ، فلا حاجة إلى الإطالة بأكثر من هذا ، فإن من نوّر الله بصيرته يكتفى بأقل من

هذا ، ومن طمس الله بصيرته فما تغنى عنه الآيات والنذر .

بيان حكم التوسل

وأما التوسل فقد صح صدوره من النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه وسلف الأمة وخلفها . أما صدروه من النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم فقد صح فى أحاديث كثيرة :

منها أنه صلى الله عليه وآله وسلم كان من دعائه : « اللهم إنى أسألك بحق السائلين عليك » وهذا توسل لاشك فيه ، وصح فى أحاديث كثيرة أنه كان يأمر أصحابه أن يدعوا به . منها ما رواه ابن ماجه بسند صحيح عن أبى سعيد الخدري رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « من خرج

من بيته إلى الصلاة فقال : اللهم إنى أسألك بحق السائلين عليك ، وأسألك بحق ممشاى هذا إلـيك ، فإنـى لم أخـرج أشرا ولا بطرا ولا رياء ولا سمعـة خرجت اتقـاء سخطك وابتغاء مرضاتك فأسألك أن تعيذنى من النار وأن تغفر لى ذنوبى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت أقبل الله عليه بوجهه واستغفر له سبعون ألف ملك »

وذكـر هذا الحـديث الجـلال السيوطى فى الجامع الكبير ، وذكره أيضا كثير من الأئمة فى كتبهم عند ذكر الدعاء المسنون عند الخروج إلى الصـلاة حتى قال بعضهم : ما من أحد من السلف إلا وكان يدعو بهذا الدعاء عند خروجه

إلى الصلاة ، فانظر قوله : بحق السائلين عليك ، فإن فيه التوسل بكل عبد مؤمن .

وروى الحديث المذكور أيضا ابن السنى بإسناد صحيح عن بلال رضى الله عنه مؤذن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولفظه « كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا خرج إلى الصلاة قال : بسم الله آمنت بالله وتوكلت على الله ولا حول ولا قوّة إلا بالله ، اللهم إنى أسألك بحق السائلين عليك وبحق مخرجى هذا فإنى لم أخرج بطرا ولا أشرا ولا رياء ولا سمعة ، خرجت ابتغاء مرضاتك واتقاء سخطك ، أسألك أن تعيذنى من النار وأن تدخلنى الجنة »

ورواه الحافظ أبو نعيم فى عمل اليوم والليلة

من حديث أبى سعيد بلفظ : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا خرج إلى الصلاة قال « اللهم إنى أسألك بحق السائلين » إلى آخر الحديث المتقدم .

ورواه البيهقى فى كتـــاب الـــدعـوات من حديث أبى سعيد أيضا ، ومحل الاستدلال قوله « أسألك بحق السائلين عليك » فعلم من هذا كله أن التوسل صدر من النبى صلى الله عليه وآلـه وسلم وأمـر أصحـابـه أن يقولوه ولم يزل السلف من التـابعـين ومن بعدهم يستعملون هذا الدعاء عند خروجهم إلى الصلاة ولم ينكر عليهم أحد فى الدعاء به .

ومما جاء عنه صلى الله عليه وآله وسلم من التوسل أنه كان يقول فى بعض أدعيته « بحق

نبيك والأنبياء الذين من قبلى» . قال العلامة ابن حجر [فى الجوهر المنظم] رواه الطبرانى بسند جيد .

ومن ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم « اغفر لأمى فاطمة بنت أسد ووسع عليها مدخلها بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلى » وهذا اللفظ قطعة من حديث طويل رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط وابن حبان والحاكم وصححوه عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال « لما ماتت فاطمة بنت أسد بن هاشم أم علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه وكانت ربت النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم دخل عليها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وجلس عند رأسها وقال : رحمك الله يا أمى بعد أمى وذكر ثناءه

عليها وتكفينها ببرده وأمره بحفر قبرها . قال فلما بلغوا اللحد حفره صلى الله عليه وآله وسلم بيده وأخرج ترابه بيده ، فلما فرغ دخل صلى الله عليه وآله وسلم فاضطجع فيه ثم قال : الله الذى يحيى ويميت وهو حى لا يموت اغفر لأمى فاطمة بنت أسد ، ووسع عليها مدخلها بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلى فإنك أرحم الراحمين » وروى ابن أبى شيبة عن جابر رضى الله عنه مثل ذلك وكذا روى مثله ابن عبد البر عن ابن عباس رضى الله عنهما ، ورواه أبو نعيم فى الحلية عن أنس رضى الله عنه ، ذكر ذلك كله الحافظ جلال الدين السيوطى فى الجامع الكبير .

ومن الأحاديث الصحيحة التى جاء التصريح فيها بالتوسل ما رواه الترمذى

والنسـائى والبيهقى والطبرانى بإسناد صحيح عن عثمـان بن حنيف وهـو صحـابى مشهور رضى الله عنه « أن رجلا ضريرا أتى النبىّ صلى الله عليه وسلم فقال : ادع الله أن يعافينى ، فقال : إن شئت دعوت ، وإن شئت صبرت ، وهـو خير ، قال : فادعـه ، فأمـره أن يتوضأ فيحسن وضوءه ويدعـو بهذا الدعاء : اللهم إنى أسـألـك وأتـوجـه إليك بنبيك محمد نبىّ الـرحمة ، يا محمد إنى أتوجه بك إلى ربى فى حاجتى لتقضى اللهم شفعـه فىّ ، فعـاد وقد أبصر » وفى رواية قال ابـن حنـيف : « فوالله ما تفـرقنـا وطال بنا الحديث حتى دخل علينا الـرجـل كأن لم يكن به ضرّ قط » ففى هذا الحديث التوسل والنداء أيضا .

وأخرج هذا الحديث أيضا البخارى فى تاريخه وابن ماجـه والحـاكم فى المستـدرك بإسناد صحيح ، وذكـره الجلال السيوطى فى الجامع الكبير والصغير ، وليس لمنكر التوسل أن يقول إن هذا إنما كان فى حياة النبىّ صلى الله عليه وسلم ؛ لأن قوله ذلك غير مقبول ، لأن هذا الـدعـاء استعمله الصحـابـة رضى الله عنهم والتـابعون أيضا بعد وفاته صلى الله عليه وآله وسلم لقضاء حوائجهم .

فقد روى الطبرانى والبيهقى أن رجلا كان يختلف إلى عثمان بن عفان رضى الله عنه فى زمن خلافته فى حاجة فكان لا يلتفت إليه ولا ينظر إليه فى حاجته ، فشكا ذلك لعثمان بن حنيف الراوى للحديث المذكور ، فقال له ائت الميضأة

فتوضأ ، ثم ائت المسجد فصل ثم قل : اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبينا محمد نبىّ الرحمة ، يا محمد إنى أتوجه بك إلى ربك لتقضى حاجتى ، وتذكر حاجتك ، فانطلق الرجل فصنع ذلك ، ثم أتى بباب عثمان بن عفان رضى الله عنه ، فجاء البواب فأخذ بيده فأدخله على عثمان رضى الله عنه فأجلسه معه وقال له : اذكر حاجتك ، فذكر حاجته فقضاها ، ثم قال له ما كان لك من حاجة فاذكرها ثم خرج من عنده فلقى ابن حنيف فقال له : جزاك الله خيرا ما كان ينظر لحاجتى حتى كلمته لى ، فقال ابن حنيف : والله ما كلمته ولكن شهدت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأتاه ضرير فشكا إليه ذهاب بصره ،

إلى آخــر الحديث المتقدم ، فهذا توسل ونداء بعد وفاته صلى الله عليه وآله وسلم .

وروى الـبيهقى وابن أبى شيبـــة بإسنــــاد صحيح أن الناس أصابهم قحط فى خلافة عمر رضى الله عنه ، فجاء بلال بن الحارث رضى الله عنه وكان من أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم إلى قبر النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم ، وقـــال : يا رســول الله استسق لأمتــك فإنهم هلكــوا ، فأتــاه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى المنـام وأخـبره أنهم يسقون ، وليس الاستــدلال بالــرؤيا للنبى صلى الله عليه وآله وسلم فإن رؤياه وإن كانت حقـا لا تثبت بها الأحكـام لإمكـان اشتبـاه الكلام على الرائى لا الشــك فى الــرؤيا ، وإنما الاستدلال بفعل

الصحابى وهو بلال بن الحارث رضى الله عنه ، فإتيانه لقبر النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم ونداؤه له وطلبه منه أن يستسقى لأمته دليل على أن ذلك جائز ، وهو من باب التوسل والتشفع والاستغاثة به صلى الله عليه وآله وسلم ، وذلك من أعظم القربات..

وقد توسل به صلى الله عليه وآله وسلم أبوه آدم عليه السلام قبل وجود سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم حين أكل من الشجرة التى نهاه الله عنها ، وحديث توسل آدم عليه السلام بالنبىّ صلى الله عليه وآله وسلم رواه البيهقى بإسناد صحيح فى كتابه المسمى [دلائل النبوة] الذى قال فيه الحافظ الذهبى : عليك به فإنه كله هدى ونور ، فرواه عن عمر بن الخطاب

رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « لما اقترف آدم الخطيئة قال : يارب أسألك بحق محمد إلا ما غفرت لى ، فقال الله تعالى : يا آدم كيف عرفت محمدا ولم أخلقه ؟ قال : يارب إنك لما خلقتنى رفعت رأسى فرأيت على قوائم العرش مكتوبا : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فعلمت أنك لم تضف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك ، فقال الله تعالى : صدقت يا آدم إنه لأحب الخلق إلىّ وإذ سألتنى بحقه فقد غفرت لك . ولولا محمد ما خلقتك » رواه الحاكم وصححه الطبرانى وزاد فيه « وهو آخر الأنبياء من ذريتك »

وإلى هذا التوسل أشار الإمام مالك رضى الله عنه للخليفة المنصور ، وذلك أنه لما حج

المنصور وزار قبر النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم سأل الإمام مالكا رضى الله عنه وهو بالمسجد النبوى فقال لمالك : يا أبا عبد الله استقبل القبلة وأدعو أم أستقبل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأدعو ؟ فقال له الإمام مالك : ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم إلى الله تعالى ؟ بل استقبل واستشفع به فيشفعه الله فيك ، قال الله تعالى (ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توّابا رحيما) ذكره القاضى عياض فى [الشفاء] وساقه بإسناد صحيح ، وذكره الإمام السبكى فى [شفاء السقام] والسيد السمهودى فى [خلاصة الوفاء] والعلامة القسطلانى فى

[المواهب اللدنية] والعلامة ابن حجر فى [الجوهر المنظم] وذكره كثير من أرباب المناسك فى آداب الزيارة . وقال العلامة ابن حجر فى [الجوهر المنظم] رواية ذلك عن مالك جاءت بالسند الصحيح الذى لا مطعن فيه . وقال العلامة الزرقانى فى [شرح المواهب] ورواها ابن فهد بإسناد جيد ورواها القاضى عياض فى [الشفاء] بإسناد صحيح رجاله ثقات ليس فى إسنادها وضاع ولا كذاب ، ومراده بذلك الرد على من لم يصدق رواية ذلك عن الإمام مالك ونسب له كراهية استقبال القبر ، فنسبة الكراهة إلى الإمام مالك مردودة .

وقال بعض المفسرين فى قوله تعالى « فتلقى

آدم من ربه كلمات » أن من جملة تلك الكلمات توسل آدم بالنبىّ صلى الله عليه وآله وسلم حين قال : يا رب أسألك بحرمة محمد إلا ما غفرت لى . واستسقى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى زمن خلافته بالعباس بن عبد المطلب رضى الله عنه عم النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم لما اشتد القحط عام الرمادة فسقوا ، وذلك مذكور فى صحيح البخارى من رواية أنس بن مالك رضى الله عنه وذلك من التوسل .

وفى [المواهب اللدنية] للعلامة القسطلانى « أن عمر رضى الله عنه لما استسقى بالعباس رضى الله عنه قال : يا أيها الناس إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

كان يرى للعباس ما يرى الولد للوالد فاقتدوا به فى عمه العباس واتخذوه وسيلة إلى الله تعالى »
ففيه التصريح بالتوسل ، وبهذا يبطل قول من منع التوسل مطلقا ، سواء كان التوسل بالأحياء أو بالأموات ، وقول من منع ذلك بغير النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم .

ونص اللفظ الواقع من عمر رضى الله عنه حين استسقى بالعباس رضى الله عنه : « اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا صلى الله عليه وسلم فتسقينا ، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا صلى الله عليه وسلم فاسقنا » والحديث مذكور فى صحيح البخارى من رواية أنس بن مالك رضى الله عنه »

وصدر الحديث عن أنس رضى الله عنه « أن

عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب ، وقال : اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا صلى الله عليه وآله وسلم فتسقينا ، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا ، قال فيسقون » انتهى .

وفعل عمر رضى الله عنه حجة لقوله صلى الله عليه وآله وسلم « إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه » رواه الإمام أحمد والترمذى عن ابن عمر رضى الله عنهما ورواه الإمام أحمد أيضا وأبو داود والحاكم فى المستدرك عن أبى ذرّ رضى الله عنه ، ورواه أبو يعلى والحاكم فى المستدرك أيضا عن أبى هريرة رضى الله عنه ، وراوه الطبرانى فى الكبيز عن بلال ومعاوية رضى الله عنهما ، وروى الطبرانى فى الكبير

وابن عدى فى الكامل عن الفضل بن العباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال « عمر معى وأنا مع عمر ، والحقّ بعدى مع عمر حيث كان » وهذا مثل ما صحّ فى حق على رضى الله عنه حيث قال صلى الله عليه وآله وسلم فى حقه « وأدر الحقّ معه حيث دار » وهو حديث صحيح رواه كثير من أصحاب السنن ، فكل من عمر وعليّ رضى الله عنهما يكون الحق معهما حيثما كانا : وهذان الحديثان من جملة الأدلة التى استدل بها أهل السنة على صحة خلافة الخلفاء الأربعة ، لأن عليا رضى الله عنه كان مع الخلفاء الثلاثة ، قبله لم ينازعهم فى الخلافة . فلما جاءت الخلافة له ونازعه غيره ممن لا يستحق التقدم عليه قاتله .

ومن الأدلـة على أن توسـل عمـر بالعباس رضى الله عنهما حجة على جواز التوسل ، قوله صلى الله عليه وآله وسلم « لو كان بعدى نبى لكان عمر » رواه الإمام أحمد والترمذى والحاكم فى المستدرك عن عقبة بن عامر الجهنى رضى الله عنه ، ورواه الطبرانى فى الكبير عن عصمة بن مالك رضى الله عنه ، وروى الطبرانى ، فى الكبير عن أبى الدرداء رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « اقتدوا باللذين من بعـدى أبى بكـر وعمـر ، فإنهما حبل الله الممدود ، من تمسـك بهما فقـد تمسـك بالعروة الوثقى لا انفصام لها »

وإنما استسقى عمر رضى الله عنه بالعباس رضى الله عنه ، ولم يستسـق بالنبى صلى الله

عليه وآله وسلم ليبين للناس جواز الاستسقاء بغير النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ، وأن ذلك لا حرج فيه ، وأما الاستسقاء بالنبى صلى الله عليه وآله وسلم ، فكان معلوما عندهم فلربما أن بعض الناس يتوهم أنه لا يجوز الاستسقاء بغير النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، فبين لهم عمر باستسقائه بالعباس الجواز ، ولو استسقى بالنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم لربما يفهم منه بعض الناس أنه لا يجوز الاستسقاء بغيره صلى الله عليه وآله وسلم .

وليس لقائل أن يقول : إنما استسقى بالعباس لأنه حيّ والنبى صلى الله عليه وآله وسلم قد مات ، وأن الاستسقاء بغير الحيّ لا يجوز . لأنا نقول : إن هذا الوهم باطل

ومـردود بأدلة كثيرة منها توسل الصحابة رضى الله عنهم بالنبىّ صلى الله عليه وآله وسلم بعد وفاته كما تقدّم فى القصة التى رواها عثمان بن حنيف فى الحاجة التى كانت لرجل عند عثمان ابن عفان رضى الله عنه ، وكما فى حديث بلال ابن الحارث رضى الله عنه ، وكما فى توسل آدم بالنبى صلى الله عليه وآله وسلم قبل وجوده ، وحديث توسل آدم رواه عمر رضى الله عنه كما تقدم ، فكيف يتوهم أنه لايعتقد صحته بعد وفاته ، وقد روى التوسل به قبل وجوده ، مع أنـه صلى الله عليه وآلـه وسلم حىّ فى قبره ، فتلخص من هذا أنه يصح التوسل به صلى الله عليه وآلـه وسلم قبـل وجوده وفى حياته وبعد وفـاتـه ، وأنـه يصـح أيضا التوسل بغيره من

الأخيار كما فعله عمر حين استسقى بالعباس رضى الله عنهما ، وذلك من أنواع التوسل كما تقدم .

وإنما خص عمر العباس رضى الله عنهما من بين سائر الصحابة رضى الله عنهم لإظهار شرف أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ولبيان أنه يجوز التوسل بالمفضول مع وجود الفاضل فإن عليا رضى الله عنه كان موجودا وهو أفضل من العباس رضى الله عنه .

قال بعض العارفين : وفى توسل عمر بالعباس رضى الله عنهما دون النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم نكتة أخرى أيضا زيادة على ما تقدم وهى شفقة عمر رضى الله عنه على ضعفاء المؤمنين ، فإنه لو استسقى بالنبىّ صلى

الله عليه وآله وسلم لربما استأخرت الإجابة ، لأنها معلقـــة بإرادة الله تعـالى ومشيئتـه ، فلو تأخرت الإجابة ، ربما تقع وسوسة واضطراب لمن كان ضعيف الإيمان بسبب تأخر الإجابة ، بخلاف ما إذا كان التوسل بغير النبيّ صلى الله عليه وآلـه وسلم ، فإنها لو تأخـرت الإجـابة لا تحصل تلك الوسوسة ولا ذلك الاضطراب .

جواز التوسل بالأولياء والصالحين

والحـاصـل أن مذهب أهل السنة والجماعة صحة التوسل وجوازه بالنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فى حياتـه وبعـد وفاته ، وكذا بغيره من الأنبياء والمـرسلين صلوات الله وسـلامـه عليه

وعليهم أجمعين ، وكذا بالأولياء والصالحين ، كما دلت عليه الأحاديث السابقة ، لأنا معاشر أهل السنة لا نعتقد تأثيرا ولا خلقا ولا إيجادا ولا إعداما ولا نفعا ولا ضرا إلا لله وحده لا شريك له ، ولا نعتقد تأثيرا ولا نفعا ولا ضرا للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ولا لغيره من الأحياء والأموات ، فلا فرق فى التوسل بالنبىّ صلى الله عليه وآله وسلم وغيره من الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين ، وكذا بالأولياء والصالحين لا فرق بين كونهم أحياء وأمواتا ، لأنهم لا يخلقون شيئا وليس لهم تأثير فى شىء وإنما يتبرّك بهم لكونهم أحباء الله تعالى . وأما الخلق والإيجاد والإعدام والنفع والضرّ فإنه لله وحده لا شريك له ؛ وأما

الـذين يفـرّقـون بين الأحياء والأمـوات فإنهم بذلك الفرق يتوهـم منهم أنهم يعتقدون التأثير للأحياء دون الأمـــوات ، ونحن نقـول (الله خالق كل شىء ـ والله خلقكم وما تعملون) . فهـؤلاء المجـــوّزون التـــوســل بالأحياء دون الأمـوات ، هم المعتقـدون تأثير غير الله وهم الــذين دخـــل الشرك فى توحيدهم لكـــونهم اعتقـــدوا تأثـير الأحياء دون الأمـوات فكيف يدّعـون أنهم محافـظون على التوحيد وينسبون غيرهـم إلى الإشراك ؟ (سبحـانك هذا بهتان عظيم) فالتـوسـل والتشفـع والاستغاثة كلها بمعنى واحد وليس لها فى قلوب المؤمنين معنى إلا التبرّك بذكر أحباء الله تعالى لما ثبت أن الله يرحـم الـعبـــاد بسببهم ، سواء كانـــوا أحياء

أو أمواتا ، فالمؤثر والموجد حقيقة هو الله تعالى ، وذكر هؤلاء الأخيار سبب عادى فى ذلك التأثير ، وذلك مثل الكسب العادي فإنه لا تأثير له .

وحياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فى قبورهم ثابتة عند أهل السنة بأدلة كثيرة : منها حديث : « مررت على موسى ليلة أسرى بى يصلى فى قبره » ومثله « مررت على إبراهيم فأمرنى بتبليغ أمتى السلام ، وأن أخبرهم أن الجنة طيبة التربة وأنها قيعان وأن غراسها سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر » . ومثل حديث اجتماعهم لما صلى بهم فى بيت المقدس ليلة أسرى به ثم تلقوه فى السموات ، وحديث تردّد النبى صلى الله عليه

وآله وسلم بين موسى ومقام مكالمته ربه لما فرض عليه خمسين صلاة فأمره موسى بالمراجعة ، وحديث « إن الأنبياء يحجون ويلبون » وكل هذه الأحاديث صحيحة لا مطعن فيها لطاعن ، فلا حاجة إلى الإطالة بذكرها .

وأيضا فقد ثبت بنص القرآن حياة الشهداء ، والأنبياء أفضل من الشهداء ، فالحياة لهم ثابتة بالأولى .

ثم إن الحياة الثابتة للأنبياء عليهم الصلاة والسلام وللشهداء ليست مثل الحياة الدنيوية بل هى حياة تشبه حال الملائكة ولا يعلم صفتها وحقيقتها إلا الله تعالى ، فيجب علينا الإيمان بثبوتها من غير بحث عن صفتها وكيفيتها ، وإذا كان الأمر كذلك فلا ينافى أن

كلا منهم قد مات وانتقل من الحياة الدنيوية ؛ بمعنى أنه زالت عنه الحياة التى كانت فى دار الدنيا وثبتت لهم حياة أخرى ، فلا إشكال فى قوله تعالى (إنك ميت وإنهم ميتون) والكلام على ذلك مبسوط فى المطولات ، فلا حاجة لنا إلى الإطالة بذكره .

فإن قال قائل : إن شبهة هؤلاء المانعين للتوسل أنهم رأوا بعض العامة يأتون بألفاظ توهم أنهم يعتقدون التأثير لغير الله تعالى ، ويطلبون من الصالحين أحياء وأمواتا أشياء جرت العادة بأنها لا تطلب إلا من الله تعالى ، ويقولون للولىّ افعل لى كذا وكذا وأنهم ربما يعتقدون الولاية فى أشخاص لم يتصفوا بها بل اتصفوا بالتخليط وعدم الاستقامة وينسبون

لهم كرامات وخوارق عادات وأحوالا ومقامات ليسوا بأهل لها ولم يوجد فيهم شيء منها . فأراد هؤلاء المانعون للتوسل أن يمنعوا العامة من تلك التوسعات دفعا للإيهام وسدّا للذريعة ، وإن كانوا يعلمون أن العامة لا يعتقدون تأثيرا ولا نفعا ولا ضرا لغير الله تعالى ، ولا يقصدون بالتوسل إلا التبرّك ، ولو أسندوا للأولياء شيئا لا يعتقدون فيهم تأثيرا . فنقول لهم : إذا كان الأمر كذلك وقصدتم سد الذريعة فما الحامل لكم على تكفير الأمة ، عالمهم وجاهلهم ، خاصهم وعامهم ؟ وما الحامل لكم على منع التوسل مطلقا ؟ بل كان ينبغي لكم أن تمنعوا العامة من الألفاظ الموهمة لتأثير غير الله تعالى وتأمروهم بسلوك الأدب فى التوسل ، مع أن

تلك الألفاظ الموهمة يمكن حملها على المجاز من غير احتياج إلى التكفير للمسلمين ، وذلك المجاز مجاز عقلى شائع معروف عند أهل العلم ومستعمل على ألسنة جميع المسلمين ووارد فى الكتاب والسنة ، وعليه يحمل قول القائل : هذا الطعام أشبعنى وهذا الماء أروانى وهذا الدواء شفانى وهذا الطبيب نفعنى فكل ذلك عند أهل السنة محمول على المجاز العقلى ، فإن الطعام لا يشبع حقيقة والمشبع حقيقة هو الله تعالى ، والطعام سبب عادى ؛ فإسناد الشبع له مجاز عقلى ، والطعام سبب عادى لا تأثير له وهكذا بقية الأمثلة . فالمسلم الموحد متى صدر منه إسناد لغير من هو له يجب حمله على المجاز العقلى ، والإسلام والتوحيد قرينة على ذلك

المجاز كما نص على ذلك علماء المعانى فى كتبهم وأجمعوا عليه .

وأما منع التوسل مطلقا فلا وجه له مع ثبوته فى الأحاديث الصحيحة وصدوره من النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه وسلف الأمة وخلفها ، فهؤلاء المنكرون للتوسل المانعون منه ، منهم من يجعله محرّما ومنهم من يجعله كفرا وإشراكا ، وكل ذلك باطل لأنه يؤدى إلى اجتماع معظم الأمة على ضلالة ؛ ومن تتبع كلام الصحابة وعلماء الأمة سلفها وخلفها يجد التوسل صادرا منهم بل ومن كل مؤمن فى أوقات كثيرة واجتماع أكثر الأمة على محرم أو كفر لا يجوز لقوله صلى الله عليه وآله وسلم فى الحديث الصحيح « لا تجتمع أمتى على ضلالة » قال

بعضهم إن هذا حديث متواتر وقال تعالى (كنتم خير أمّة أخرجت للناس) .

فاللائق بهؤلاء المنكرين إذا أرادوا سدّ الذريعة ومنع الناس من الألفاظ الموهمة لتأثير غير الله تعالى أن يقولوا : ينبغى أن يكون التوسل بالأدب وبالألفاظ التى ليس فيها إيهام ، كأن يقول المتوسل : اللهمّ إنى أسألك وأتوسل إليك بنبيك صلى الله عليه وآله وسلم وبالأنبياء قبله وبعباده الصالحين أن تفعل بى كذا وكذا ، لا أنهم يمنعون من التوسل ، ولا أن يتجاسروا على تكفير المسلمين الموحدين الذين لا يعتقدون التأثير إلا لله وحده لا شريك له .

ومن الشبه التى تمسك بها هؤلاء المنكرون

للتوسل ، قوله تعالى (لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعـاء بعضكم بعضـا) فإن الله نهى المؤمنين فى هذه الآية أن يخاطبوا النبى صلى الله عليه وسلم بمثل ما يخاطب بعضهم بعضا كأن ينادوه باسمه ؛ وقياسا على ذلك يقال لا ينبغى أن يطلب من غير الله تعالى كالأنبياء والصالحين الأشياء التى جرت العادة بأنها لا تطلب إلا من الله تعالى ، لئلا تحصل المساواة بين الله تعالى وخلقه بحسب الظاهر ، وإن كان الطلب من الله على أنه الموجد للشىء والمؤثر فيه ومن غيره على أنـه سبب عادى لكنه ربما يوهم التأثير ، فالمنع من ذلك الطلب لدفع هذا الإيهام .

والجـواب : أن هذا لا يقتضى المنـع من التـوسـل مطلقـا ولا يقتضى منـع الطلب من

موحد فإنه يحمل على المجاز العقلى إذا صدر من موحـد فلا وجه لكونه شركا ولا لكونه محرما ، فلو قالوا إن ذلك خلاف الأدب وأجازوا التوسل وشرطـوا فيه أن يكـون بالأدب والاحتراز عن الألفاظ الموهمة لكان له وجه ، وأما المنع مطلقا فلا وجه له .

قال العلامة ابن حجر فى (الجوهر المنظم) ولا فرق فى التوسل بين أن يكون بلفظ التوسل أو التشفع أو الاستغاثة أو التوجه ، لأن التوجه من الجـاه وهـو علوّ المنزلة ، وقد يتوسل بذى الجاه إلى من هو أعلى منه جاها ، والاستغاثة : معنـاها طلب الغوث ، والمستغيث يطلب من المستغاث به أن يحصل له الغوث من غيره وإن كان أعلى منه ؛ فالتوجه والاستغاثة به صلى الله

عليه وآله وسلم وبغيره ليس لهما معنى فى قلوب المسلمـــين إلا طلب الغــوث حقيقـة من الله تعـالى ، ومجـازا بالتسبب العـادى من غيره ، ولا يقصد أحد من المسلمين غير ذلك المعنى . فمن لم ينشرح لذلك صدره فليبك على نفسه ، نسأل الله العافية .

فالمستغاث به فى الحقيقة هو الله تعالى ، وأما النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم فهو واسطة بينه وبين المستغيث ، فهو سبحانه وتعالى مستغاث به حقيقـة ، والغـوث منـه بالخلق والإيجاد ، والنبىّ صلى الله عليه وآلـه وسلم مستغاث به مجازا والغـوث منـه بالكسب والتسبب العادى باعتبـار توجهـه وتشفعـه عند الله لعلو منزلته وقدره ، فهو على حد قوله تعالى (وما رميت إذ

رميت ولكن الله رمى) أى ومـــا رميت خلقـا وإيجادا إذ رميت تسببا وكسبا ، ولكن الله رمى خلقا وإيجادا ، وكذا قوله تعالى (فلم تقتلوهـم ولكن الله قتلهم) وقـولـه صلى الله عليه وآله وسلم « ما أنا حملتكم ولكن الله حملكم » وكثيرا ما تجىء السنـة لبيان الحقيقة ، ويجىء القرآن الكريم بإضافة الفعل لمكتسبه ويسند إليه مجازا كقوله تعالى (ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون) وقـولـه صلى الله عليه وآله وسلـم « لن يدخل أحـــدكـم الجنـــة بعمله » فالآية بيان للسبب العـادى والحـديث لبيان سبب فعـل الفـاعل الحقيقى وهـــو فضـل الله تعـالى . وبـالجملة فإطـلاق لفظ الاستغـاثة لمن يحصل منه غوث باعتبـار الكسب أمـر معلوم لا شكّ فيه لغـة

ولا شرعا ، فإذا قلت أغثنى يا الله تريد الإسناد الحقيقى باعتبار الخلق والإيجاد ، وإذا قلت أغثنى يا رسول الله تريد الإسناد المجازى باعتبار التسبب والكسب والتوسط بالشفاعة .

ولو تتبعت كلام الأئمة وسلف الأمة وخلفها لوجدت شيئا كثيرا من ذلك ، بل فى الأحاديث الصحيحة كثير من ذلك ، ومنه ما فى صحيح البخارى فى مبحث الحشر ووقوف الناس للحساب يوم القيامة ، بينما هم كذلك استغاثوا بآدم ثم بموسى ثم بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم ، فتأمل تعبيره صلى الله عليه وآله وسلم بقوله « واستغاثوا بآدم » فإن الاستغاثة به مجازية ، والمستغاث به حقيقة هو الله تعالى ، وصح عنه صلى الله عليه وآله وسلم لمن أراد عونا

أن يقول « يا عباد الله أعينونى » وفى رواية « أغيثونى » .

وجاء فى الحديث قصة قارون لما خسف به أنه استغاث بموسى عليه السلام فلم يغثه بل صار يقول يا أرض خذيه ، فعاتب الله موسى حيث لم يغثه وقال له : استغاث بك فلم تغثه ولو استغاث بى لأغثته فإسناد الإغاثة إلى الله تعالى إسناد حقيقى ، وإسنادها إلى موسى مجازى .

وقد يكون معنى التوسل به صلى الله عليه وآله وسلم طلب الدعاء منه إذ هو صلى الله عليه وآله وسلم حىّ فى قبره يعلم سؤال من يسأله . وقد تقدّم حديث بلال بن الحارث رضى الله عنه المذكور فيه : أنه جاء إلى قبره صلى الله عليه

وآلــه وسلم وقــال : يا رســول الله استسق لأمتك : أى ادع الله لهم ، فعلم منه أنه صلى الله عليه وآله وسلم يطلب منه الدعاء بحصول الحـاجات كما كان يطلب منه فى حياته لعلمه بسؤال من يســألـه مع قدرتـه على التسبب فى حصول ما سئل فيه بسؤاله ودعائه وشفاعته إلى ربه عز وجل ، وأنه صلى الله عليه وآله وسلم يتـوسـل به فى كل خير قبـل بروزه لهذا العالم وبعـده ، فى حياتــه وبعـد وفـاتـه ، وكذا فى عرصـات القيامة فيشفع إلى ربه وكل هذا مما تواتـرت به الأخبار وقام به الإجماع قبل ظهور المانعين منه ، فهو صلى الله عليه وآله وسلم له الجـاه الـوسيع والقدر المنيع عند سيده ومولاه المنعم عليه بما حباه وأولاه .

وأما تخيل المانعين المحرومين من بركاته أن منع التوسل والزيارة من المحافظة على التوحيد ، وأن التوسل والزيارة مما يؤدى إلى الشرك فهو تخيل فاسد باطل ؛ فالتوسل والزيارة إذا فعل كل منهما مع المحافظة على آداب الشريعة الغراء لا يؤدى إلى محذور ألبتة . والقائل بمنع ذلك سدا للذريعة متقوّل على الله تعالى وعلى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم .

واجب تعظيم النبى صلى الله عليه وآله وسلم

وكأن هؤلاء المانعين للتوسل والزيارة يعتقدون أنه لا يجوز تعظيم النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم ، فحيثما صدر من أحد تعظيم له صلى الله عليه وآله وسلم حكموا على فاعله

بالكفر والإشراك ، وليس الأمر كما يقولون ، فإن الله تعالى عظم النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم فى القرآن الكريم بأعلى أنواع التعظيم ، فيجب علينا أن نعظم من عظمه الله تعالى وأمر بتعظيمه ، نعم يجب علينا أن لا نصفه بشىء من صفات الربوبية ، ورحم الله الأبوصيرى حيث قال :

دع ما ادّعته النصارى فى نبيهم
واحكم بما شئت مدحا فيه واحتكم

فليس فى تعظيمه بغير صفات الربوبية شىء من الكفر والإشراك ، بل ذلك من أعظم الطاعات والقربات ، وهكذا كلّ من عظمهم الله تعالى كالأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين ، وكالملائكة

وكالصدّيقين والشهداء والصالحين . قال تعالى « ومن يعــظم شعــائــر الله فإنها من تقـوى القلوب » وقال تعالى (ومن يعظم حرمات الله فهــو خير له عند ربه) ومن تعظيمه صلى الله عليه وآله وسلم : الفرح بليلة ولادته ، وقراءة المولد ، والقيام عند ذكر ولادته صلى الله عليه وآله وسلم ، وإطعام الطعام وغير ذلك مما يعتاد الناس فعله من أنواع البرّ ، فإن ذلك كله من تعظيمه صلى الله عليه وآله وسلم ، وقد أفردت مسئلة المولد وما يتعلق بها بالتأليف ، واعتنى بذلــك كثــير من العلماء ، فألفــوا فى ذلـك مصنفـات مشحـونـة بالأدلـة والبراهين ، فلا حاجة لنا إلى الإطالة بذلك .

ومـا أمر الله بتعظيمه : الكعبة المعظمة ،

والحجر الأسود ، ومقام إبراهيم عليه السلام فإنها أحجار وأمرنا الله بتعظيمها : بالطواف بالبيت ، ومس الركن اليمانى وتقبيل الحجر الأسود ، وبالصلاة خلف المقام ، وبالوقوف للدعاء عند المستجار ، وباب الكعبة ، والملتزم ، والميزاب ، كما جرى على ذلك السلف والخلف وكلهم فى ذلك لا يعبدون إلا الله ولا يعتقدون تأثيرا لغيره ولا نفعا ولا ضرًّا ، لأن ذلك لا يكون إلا لله وحده ولا يكون لأحد سواه .

والحاصل كما تقدم أن هنا أمرين : أحدهما وجوب تعظيم النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم ورفع رتبته عن سائر المخلوقات . والثانى إفراد الربوبية واعتقاد أن الرب تبارك وتعالى منفرد

بذاتـه وصافته وأفعاله عن جميع خلقه ، فمن اعتقد فى مخلوق مشاركة البارى سبحانه وتعالى فى شىء من ذلك فقد أشرك كالمشركين الذين كانوا يعتقدون الألوهية للأصنام واستحقاقاتها للعبادة ؛ ومن قصر بالرسول صلى الله عليه وآله وسلم فى شىء عن مرتبته فقد عصى أو كفر ؛ وأمّـا من بالـغ فى تعـظيمه بأنواع التعظيم ولم يصفه بشىء من صفات الربوبية فقد أصاب الحقّ وحـافظ على جانب الـربـوبية والـرسالة جميعا ، وذلك هو القول الذى لا إفراط فيه ولا تفريط .

وإذا وجد فى كلام المؤمنين إسناد لشىء غير الله تعـالى يجب حمله على المجـاز العقـلى ، ولا سبيل إلى تكفير أحد من المؤمنين ، إذ المجاز

العقلى مستعمل فى الكتاب والسنة ؛ فمن ذلك قولـه تعـالى (وإذا تليت عليهم آياتـه زادتهم إيمانا) فإسناد الزيادة إلى الآيات مجاز عقلى ، وهـى سبب عادى للزيادة ، والـذى يزيد فى الإيمان حقيقة هو الله تعالى وحده لا شريك له وقوله تعالى (يوما يجعل الولدان شيبا) فإسناد الجـعـل إلى اليوم مجاز عقـلى لأن اليوم محل لجعلهم شيبا ، فالجعل المذكور واقع فى اليوم ، والجـاعـل حقيقة هو الله تعالى وحده ، وقوله تعـالى (ولا يغـوث ويعـوق ونسرا وقد أضلوا كثـيرا) فإسناد الإضـلال إلى الأصنـام مجاز عقـلى ، لأنها سبب فى حصـول الإضـلال والهـادى والمضـلّ حقيقـة هو الله تعالى وحده لا شريك له ، وقوله تعالى حكاية عن فرعون

(يا هامـان ابن لى صرحا) فإسناده البناء إلى هامـان مجاز عقـلى لأنـه سبب آمر ، فهو يأمر بذلك ولا يبنى بنفسه ، والذى يبنى إنما هم الفعلة .

وأمـا الأحـاديث النبـوية ففيهـا من المجاز العقلى شىء كثير يعرف ذلك من وقف عليه من ذلك الحديث المتقدم « بينما هم كذلك استغاثوا بآدم » فإغاثة آدم عليه السلام مجازية والمغيث حقيقة هو الله تعالى . وأما كلام العرب ففيه من المجاز العقلى مالا يحصى كقولهم : أنبت الربيع البقـل ، فجعلوا الـربيع وهـو المـطر منبتـا ، والمنبت حقيقة هو الله تعالى ، فإسناد الإنبات إلى الـربيع مجاز عقـلى ، فإذا قال العامى من المسلمين نفعنى النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم

أو أغـاثنى أو نحـو ذلـك فإنـما يريد الإسناد المجازى ، والقرينة على ذلك أنه مسلم موحد لا يعتقد التأثير إلا لله ، فجعلهم ذلك وأمثاله من الشرك جهـــل محض وتـلبـيس على عوام الموحدين ، وقد اتفق العلماء على أنه إذا صدر مثـل هذا الإسنـاد من موحـد فإنه يحمل على المجـاز ، والتـوحيد يكفى قرينة لذلك ، لأن الاعتقـــاد الصحيح هو اعتقـــاد أهـل السنـة والجماعة واعتقادهم أن الخالق للعباد وأفعالهم هو الله تعـالى لا تأثـير لأحـد سواه ؛ لا لحىّ ولا لميت ، فهذا الاعتقاد هو التوحيد المحض بخلاف من اعتقد غير هذا فإنه يقع فى الإشراك .

وأمـا الفرق بين الحى والميت كما يفهم من

كلام هؤلاء المانعين للتوسل فإن كلامهم يفيد أنهم يعتقدون أن الحى يقدر على بعض الأشياء دون الميت ، فكأنهم يعتقدون أن العبد يخلق أفعال نفسه فهو مذهب باطل ، والدليل على أن هذا هو اعتقادهم أنهم يقولون إذا نودى الحى وطلب منه ما يقدر عليه فلا ضرر فى ذلك ، وأما الميت فإنه لا يقدر على شىء أصلا . وأما أهل السنة فإنهم يقولون : الحى لا يقدر على شىء كما أن الميت كذلك لا يقدر ، والقادر حقيقة هو الله تعالى ، والعبد ليس له إلا الكسب الظاهرى باعتبار الحىّ ، والكسب الباطنى باعتبار التبرك بذكر اسم النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم وغيره من الأخيار وتشفعهم فى ذلك ، والخالق للعباد

وأفعالهم هو الله وحده لا شريك له .

وقد تقدّم كثير من الدلائل الدالة على صحة التوسل ، ولا بأس بإلحاق أدلة تدل على ذلك زيادة على ما تقدم :

أدلة جواز التوسل بالنبى صلى الله عليه وآله وسلم

..

ذكر العلامة السيد السمهودى فى (خلاصة الوفاء) أن من الأدلة الدالة على صحة التوسل بالنبىّ صلى الله عليه وآلـه وسلم بعـد وفـاتـه ما رواه الدارمى فى صحيحه عن أبى الجوزاء قال : قحط أهل المدينة قحطا شديدا ، فشكوا إلى عائشة رضى الله عنها فقالت : انظروا إلى

قبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فاجعلوا منه كوّة إلى السماء حتى لا يكون بينه وبين السماء سقف ، ففعلوا فمطروا حتى نبت العشب وسمنت الإبل حتى تفتقت من الشحم ، فسمى عام الفتق .

قال العلامة المراغى « وفتح الكوة عند الجدب سنة أهل المدينة يفتحون كوة فى أسفل قبة الحجرة المطهرة وإن كان السقف ليس حائلا بين القبر الشريف والسماء .

قال السيد السمهودى بعد كلام المراغى : وسنتهم اليوم فتح الباب المواجه للوجه الشريف ويجتمعون هناك وليس القصد إلا التوسل بالنبىّ صلى الله عليه وآله وسلم والاستشفاع به إلى ربه لرفعة قدره عند الله وقال أيضا فى

(خلاصة الوفاء) . « أن التوسل والتشفع به صلى الله عليه وآلـه وسلم وبجاهه وبركته من سنن المرسلين وسيرة السلف الصالحين » ا هـ .

وذكـر كثير من علماء المـذاهب الأربعة فى كتب المناسك عند ذكرهم زيارة النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم أنه يسن للزائر أن يستقبل القبر الشريف ويتـوسـل به إلى الله تعالى فى غفران ذنـوبـه وقضاء حاجاته ويستشفع به صلى الله عليه وآله وسلم ، قالوا : من أحسن ما يقول ما جاء عن العتبى ، وهو مروىّ أيضا عن سفيان بن عيينـة وكـلّ منهـما من مشـايخ الإمـام الشافعى ، قال العتبى : كنت جالسا عند قبر رسـول الله صلى الله عليه وآلـه وسلم فجـاء أعرابى فقال : السلام عليك يا رسول الله ،

سمعت الله يقول ، وفى رواية : يا خير الرسل إن الله أنزل عليك كتابا صادقا قال فيه (ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما) وقد جئتك مستغفرا من ذنبى مستشفعا بك إلى ربى ، وفى رواية : وإنى جئتك مستغفرا ربك عز وجل من ذنوبى ، ثم بكى وأنشأ يقول :

يا خير من دفنت بالقاع أعظمه

فطاب من طيبهن القاع والأكم ،

نفسى الفداء لقبر أنت ساكنه

فيه العفاف وفيه الجود والكرم

قال العتبى : ثم استغفر الأعرابى وانصرف ، فغلبتنى عيناى فرأيت النبىّ صلى

الله عليه وآله وسلم فى النوم فقال : يا عتبى ألحق الأعرابى فبشره أن الله غفر له ، فخرجت خلفه فلم أجده ، وليس محل الاستدلال الرؤيا فإنها لا تثبت بها الأحكام لاحتمال حصول الاشتباه على الرائى كما تقدم ذلك ، وإنما محل الاستدلال كون العلماء استحسنوا الإتيان بما تقدم ذكره ، وذكروا فى مناسكهم استحباب الإتيان به للزائر ، وليس فى قولهم : وفى رواية كذا وفى رواية كذا منافاة لاحتمال أن الراوى حكى ذلك بالمعنى ؛ فمرة عبر بقوله يا خير الرسل ومرة عبر بقوله يا رسول الله وعلى ذلك يحمل أمثال هذا .

وقال العلامة ابن حجر فى (الجوهر المنظم) : وروى بعض الحفاظ عن أبى سعيد

السمعـانى أنـه روى عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه وكرم وجهه أنهم بعد دفنه صلى الله عليه وآله وسلم بثلاثة أيام جاءهم أعرابى فرمى بنفسـه على القـبر الشريف على صاحبه أفضـل الصـلاة والسلام وحثا ترابه على رأسه وقـال : يا رسـول الله قلت فسمعنـا قولك ، ووعيت عن الله ما وعينا عنك ، وكان فيما أنزل الله عليك قولـه تعـالى (ولـو أنهم إذ ظلمـوا أنفسهم جاءوك فاستغفـروا الله واستغفـر لهم الـرسول لوجدوا الله توابا رحيما) وقد ظلمت نفسى وجئتك مستغفرا إلى ربى ، فنودى من القبر الشريف : إنه قد غفر لك .

وجاء مثل ذلك عن علىّ رضى الله عنه من طريق أخرى ، فهى تؤيد رواية السمعانى ،

ويؤيد ذلـك أيضا ما صح عنه صلى الله عليه وآله وسلم من قوله « حياتى خير لكم تحدثون ويحـدث لكم ، ووفاتى خير لكم تعرض علىّ أعمالكم ، ما رأيت من خير حمدت الله تعالى ، وما رأيت من شرّ استغفرت لكم »

ويؤيد ذلك أيضا ما ذكره العلماء فى آداب الزيارة من أنه يستحب أن يجدد الزائر التوبة فى ذلـك الموقف الشريف ، ويسأل الله تعالى أن يجعلهـا توبة نصوحا ، ويستشفع به صلى الله عليه وآلـه وسلم إلى ربه عز وجل فى قبولها ، ويكثر الاستغفار والتضرّع بعد تلاوة قوله تعالى (ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفـر لهم الـرسـول لوجـدوا الله توّابا رحيما) ويقول نحن وفدك يا رسول الله وزوّارك

جئناك لقضاء حقك والتبرّك بزيارتك والاستشفاع بك مما أثقل ظهورنا وأظلم قلوبنا ، فليس لنا يا رسول الله شفيع غيرك نؤمله ، ولا رجاء غير بابك نصله ، فاستغفر لنا واشفع لنا عند ربك ، واسأله أن يمنّ علينا بسائر طلباتنا ويحشرنا فى زمرة عباده الصالحين والعلماء العاملين .

وفى (الجوهر المنظم) أيضا : أن أعرابيا وقف على القبر الشريف وقال : اللهم إن هذا حبيبك وأنا عبدك والشيطان عدوّك فإن غفرت لى سرّ حبيبك وفاز عبدك وغضب عدوّك ، وإن لم تغفر لى غضب حبيبك ؛ ورضى عدوّك وهلك عبدك ، وأنت ياربّ أكرم من أن تغضب حبيبك وترضى عدوّك وتهلك عبدك . اللهمّ

إن العرب إذا مات فيهم سيد أعتقوا على قبره ، وإن هذا سيد العالمين فأعتقنى على قبره يا أرحم الراحمين ، فقال له بعض الحاضرين : يا أخا العرب إن الله قد غفر لك بحسن هذا السؤال .

وذكر علماء المناسك أيضا أن استقبال قبره الشريف صلى الله عليه وآله وسلم وقت الزيارة والدعاء أفضل من استقبال القبلة .

قال العلامة المحقق الكمال بن الهمام : إن استقبال القبر الشريف أفضل من استقبال القبلة ، وأما ما نقل عن الإمام أبى حنيفة رضى الله عنه أن استقبال القبلة أفضل فهذا النقل غير صحيح ، فقد روى الإمام أبو حنيفة نفسه فى مسنده عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه

قال : من السنة استقبال القبر المكرّم وجعل الظهر للقبلة .

وسبق ابن الهمام فى النص على ذلك العلامة ابن جماعة ، فإنه نقل استحباب استقبال القبر عن الإمام أبى حنيفة رضى الله عنه ، وردّ على الكرمانى فى أنه تستقبل القبلة فقال إنه ليس بشىء .

ثم قال فى (الجوهر المنظم) : ويستدل لاستقبال القبر أيضا بأنا متفقون على أنه صلى الله عليه وآله وسلم حىّ فى قبره يعلم بزائره ، وهو صلى الله عليه وآله وسلم لما كان فى الدنيا لم يسع زائره إلا استقباله واستدبار القبلة فكذا يكون الأمر حين زيارته فى قبره الشريف صلى الله عليه وآله وسلم ، وإذا اتفقنا فى المدرس من

العلماء بالمسجد الحرام المستقبل للقبلة أن الطلبة يستقبلونه ويستدبرون الكعبة ، فما بالك به صلى الله عليه وآله وسلم ؟ فهذا أولى بذلك قطعا ، وقد تقدم قول الإمام مالك للخليفة المنصور : « ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم إلى الله ؟ بل استقبله واستشفع به » .

قال العلامة الزرقانى فى شرح المواهب : كتب المالكية طافحة باستحباب الدعاء عند القبر مستقبلا له مستدبرا للقبلة . ثم نقل عن مذهب الإمام أبى حنيفة والشافعى والجمهور مثل ذلك ، وأما مذهب الإمام أحمد ففيه اختلاف بين علماء مذهبه . والراجح عند المحققين منهم استحباب استقبال القبر

الشريف كبقية المذاهب ، وكذا القول فى التوسل فإن المرجح عند المحققين منهم استحبابه لصحة الأحاديث الدالة على ذلك فيكون المرجح عند الحنابلة موافقا لما عليه أهل المذاهب الثلاثة ، وقد أطال الإمام السبكى فى (شفاء السقام) فى نقل نصوص أهل المذاهب الأربعة فى ذلك . وذكر الشيخ طاهر سنبل فى رسالة له فى ذلك أن ممن ذكر ذلك من علماء الحنابلة الإمام أبا عبيد الله السامرى فى المستوعب ، ورفعت فتوى لمفتى الحنابلة بمكة الشيخ محمد عبد الله بن حميد فى هذه المسئلة ، فأجاب بأن الراجح عند الحنابلة استقبال القبر الشريف عند الدعاء ، واستحباب التوسل . قال وذلك مذكور فى كثير

من كتب المذهب المعتمدة : منها شرح مناسك المقنع للإمام شمس الدين بن مفلح صاحب الفروع ، ومنها شرح الإقناع لمحرر المذهب الشيخ منصور البهوتى ، ومنها شرح غاية المنتهى ، ومنها منسك الشيخ سليمان بن على جد الشيخ محمد بن عبد الوهاب صاحب الدعوة ، وكثير من المؤلفين فى المذهب ذكروا ذلك . قال : وبعض هؤلاء ذكروا أيضا قصة العتبى المشهورة وإنشاد الأعرابى « يا خير من دفنت بالقاع أعظمه . . . إلى آخرها ، وأما الحديث الذى فيه « اللهمّ إنى أسألك وأتوجه إليك » إلى آخره ، فهو حديث أخرجه الترمذى وصححه ، وأخرجه النسائى والبيهقى أيضا وصححه ، ثم قال المفتى المذكور : إذا تحقق

ذلك علمنا أن المعتمد عند الحنابلة هو ما ذكره السائل أعنى استحباب استقبال القبر عند الدعاء واستحباب التوسل ، والمنكر لذلك جاهل بمذهب الإمام أحمد ا هـ

وأما ماذكره الألوسى فى تفسيره من أن بعضهم نقل عن الإمام أبى حنيفة رضى الله عنه أنه منع التوسل فهو نقل غير صحيح ، إذ لم ينقله عن الإمام أحد من أهل مذهبه وهم أدرى به ، بل كتبهم طافحة باستحباب التوسل ، ونقل المخالف غير معتبر ، فإياك أن تغترّ به .

وفى المواهب اللدنية للإمام القسطلانى : وقف أعرابى على قبره الشريف صلى الله عليه وسلم وقال : اللهم إنك أمرت بعتق العبيد وهذا حبيبك وأنا عبدك فأعتقنى من النار على

قبر حبيبك ، فهتف به هاتف : يا هذا تسأل العتق لك وحدك ، هلا سألت العتق لجميع المؤمنين ؟ اذهب فقد أعتقتك ، ثم أنشد القسطلانى أحد البيتين المشهورين وأنشد شارحه الزرقانى البيت الآخر ، وهما :

إن الملوك إذا شابت عبيدهم
في رقهم أعتقوهم عتق أحرار
وأنت يا سيدى أولى بذا كرما
قد شبت فى الرق ، فاعتقنى من النار

ثم قال فى المواهب عن الحسن البصرى قال : وقف حاتم الأصمّ على قبره صلى الله عليه وآله وسلم فقال : ياربِّ إنا زرنا قبر نبيك صلى الله عليه وآله وسلم فلا تردنا خائبين ، فنودى يا هذا ما أذنا لك فى زيارة قبر حبيبنا إلا

وقـد قبلناك فارجع أنت ومن معك من الزوّار مغفورا لكم .

وقال ابن أبى فديك : سمعت بعض من أدركت من العلماء والصلحاء يقول : بلغنا أن من وقف عند قبر النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم فتلا هذه الآية (إن الله وملائكته يصلون على النبىّ يا أيها الـذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما) وقـال صلى الله عليك يا محمـد حتى يقـولها سبعين مرّة ناداه ملك صلى الله عليك يا فلان ولم تسقط له حاجة .

قال الشيخ زين الـدين المـراغى وغـيره : الأولى أن يقـول صلى الله عليك يا رسول الله بدل قوله يا محمد للنهى عن ندائه باسمه حيا وميتـا ، وابن أبى فديك من أتباع التابعين ،

وكان من الأئمة الثقات المشهورين ، وهو من المروى عنه فى الصحيحين وغيرهما من كتب السنن : قال الزرقانى فى شرح (المواهب) : اسمه محمد بن إسماعيل بن مسلم الديلمى ، مات سنة مائتين ، وهذا الذى نقله من المواهب عن ابن أبى فديك رواه عنه أيضا البيهقى . وفى شرح المواهب للزرقانى أن الداعى إذا قال : اللهمّ إنى أستشفع إليك بنبيك : يا نبىّ الرحمة اشفع لى عند ربك استجيب له .

فقد اتضح لك من هذه النصوص المروية عن النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه وسلف الأمة وخلفها أن التوسل به صلى الله عليه وآله وسلم وزيارته وطلب الشفاعة منه ثابتة عنهم قطعا بلا شك ولا مرية ، وأنها من

أعظم القربات وأن التوسل به واقع قبل خلقه وبعد خلقه فى حياته وبعد وفاته ، وسيكون التوسل به أيضا بعد البعث فى عرصات القيامة .

قال فى المواهب : ورحم الله ابن جابر حيث قال :

به قد أجاب الله آدم إذ دعا
ونجى فى بطن السفينة نوح
وما ضرّت النار الخليل لنوره
ومن أجله نال الفداء ذبيح

ثم قال وفى كتاب (مصباح الظلام فى المستغيثين بخير الآنام) للشيخ أبى عبد الله بن النعمان ما يشفى الغليل من ذلك . ثم ذكر فى

المواهب كثيرا من البركات التى حصلت له ببركة توسله بالنبىّ صلى الله عليه وآله وسلم .

وروى البيهقى عن أنس رضىّ الله عنه « أن أعرابيا جاء إلى النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم يستسقى به ، وأنشد ابياتا أوّلها :

أتيناك والعذراء يدمى لبانها

وقد شغلت أم الصبىّ عن الطفل

إلى ان قال :

وليس لنا إلا إليك فرارنا

وأنى فرار الخلق إلا إلى الرسل

فلم ينكر عليه صلى الله عليه وآله وسلم هذا البيت ، بل قال أنس لما أنشد الأعرابى الأبيات قام صلى الله عليه وآله وسلم يجرّ رداءه حتى

رقى المنبر فخطب ودعا لهم ، فلم يزل يدعو حتى مطرت السماء »

وفى صحيح البخارى « أنه لما جاء الأعرابى وشكا للنبى صلى الله عليه وسلم القحط ، فدعا الله فانجابت السماء بالمطر ، قال صلى الله عليه وسلم : لو كان أبو طالب حيا لقرّت عيناه ، ومن ينشدنا قوله ؟ فقال علىّ رضى الله عنه : يا رسول الله كأنك أردت قوله :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه
ثمال اليتامى عصمة للأرامل

فتهلل وجه النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم ولم ينكر إنشاد البيت ولا قوله يستسقى الغمام بوجهه ، ولو كان ذلك حراما أو شركا لأنكره ولم يطلب إنشاده .

وكان سبب إنشاء أبى طالب هذا البيت من جملة قصيدة مدح بها النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم أن قريشا فى الجاهلية أصابهم قحط فاستسقى لهم أبو طالب وتوسل بالنبىّ صلى الله عليه وآله وسلم وكان صغيرا ، فاغدودق عليهم السحاب بالمطر ، فأنشأ أبو طالب تلك القصيدة .

وصح عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام : يا عيسى آمن بمحمد ومر من أدركه من أمتك أن يؤمنوا به ، ولولا محمد ما خلقت الجنة والنار ، ولقد خلقت العرش على الماء فاضطرب فكتبت عليه لا إله إلا الله محمد رسول الله فسكن .

قال فى الجوهر المنظم فإذا كان له صلى الله عليه وآله وسلم هذا الفضل والخصوصية أفلا يتوسل به ؟

وذكـر القسطلانى فى شرحه على البخارى عن كعب الأحبار : أن بنى إسرائيل كانوا إذا قحطوا استسقوا بأهل بيت نبيهم ، فعلم بذلك أن التوسل مشروع حتى فى الأمم السابقة .

وقال السيد السمهودى فى خلاصة الوفاء : إن العادة جرت أن من توسل عند شخص بمن له قدر عنـده يكرمه لأجله ويقضى حاجته ، وقد يتوجه بمن له جاه إلى من هو أعلى منه ، وإذا جاز التـوسـل بالأعـمال الصـالحة كما فى صحيح البخارى فى حديث الثلاثة الذين أووا إلى غار فأطبق عليهم ذلـك الغار فتوسل كل

منهم إلى الله تعـالى بأرجى عمل له فانفرجت الصخرة التى سدت الغار عليهم ، فالتوسل به صلى الله عليه وآله وسلم أحق وأولى لما فيه من النبوّة والفضائل سواء كان ذلك فى حياته أو بعد وفاته ، فالمؤمن إذا توسل به إنما يريد بنبوّته التى جمعت الكمالات .

وهؤلاء المانعون للتوسل يقولون يجوز التوسل بالأعمال الصالحة مع كونها أعراضا ، فالذوات الفاضلة أولى ، فإن عمر رضى الله عنه توسل بالعباس رضى الله عنه ، وأيضا لو سلمنا ذلك نقول لهم : إذا جاز التوسل بالأعمال الصالحة فما المانع من جوازها بالنبىّ صلى الله عليه وآله وسلم باعتبـار ما قام به من النبـوّة والـرسـالة والكمالات التى فاقت كل كمال وعظمت على

كل عمل صالح فى الحال والمآل مع ما ثبت من الأحاديث الدالة على ذلك ، ومثله سائر الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين ، وكذا الأولياء وعباد الله الصالحين لما فيهم من الطهارة القدسية ومحبة ربّ البرية وحيازة أعلى مراتب الطاعة واليقين من رب العالمين ، وذلك سببه كونهم من عباد الله المقربين ، فيقضى الله سبحانه وتعالى بالتوسل بهم حوائج المؤمنين ، وينبغى أن يكون ذلك التوسل مع الأدب الكامل واجتناب الألفاظ التى توهم التأثير لغير الله تعالى .

ومن أدلة جواز التوسل قصة سواد بن قارب رضى الله عنه التى رواها الطبرانى فى الكبير ، وفيها « أن سواد بن قارب أنشد رسول الله صلى

الله عليه وآله وسلم قصيدته التى فيها التوسل ولم ينكر عليه ، ومنها قوله :

وأشهد أن الله لارَبّ غيره
وأنك مأمون على كل غائب
وأنك أدنى المرسلين وسيلة
إلى الله ياابن الأكرمين الأطايب
فمرنا بما يأتيك يا خير مرسل
وإن كان فيما فيه شيب الذوائب
وكن لى شفيعا يوم لاذو شفاعة
بمغن فتيلا عن سواد بن قارب

فلم ينكر عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قوله « أدنى المرسلين وسيلة » ولا قوله « وكن لى شفيعا » .

وكذا من أدلة التوسل مرثية صفية رضى الله

عنها عمة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فإنها رثتـه بعد وفاته صلى الله عليه وآله وسلم بأبيات فيها قولها :

ألا يارسول الله أنت رجاؤنا

وكنت بنا برا ولم تك جافيا

ففيهـا النـداء بعـد وفاته مع قولها « أنـت رجاؤنا » وسمع تلك المرثية الصحابة رضى الله عنهم فلم ينكـر عليها أحد قولها « يارسول الله أنت رجاؤنا »

قال العلامة ابن حجر فى كتابه المسمي بـ (الخيرات الحسان فى مناقب الإمام أبى حنيفة النعمان) فى الفصل الخامس والعشرين : إن الإمـام الشـافعى أيام هو ببغـداد كان يتوسل بالإمـام أبى حنيفـة رضى الله عنـه يجيء إلى

ضريحه يزوره فيسلم عليه ثم يتوسل إلى الله تعالى به فى قضاء حاجاته .

وقد ثبت أيضا أن الإمام أحمد توسل بالإمام الشافعى رضى الله عنهما حتى تعجب ابنه عبد الله بن الإمام أحمد ، فقال له الإمام أحمد إن الشافعى كالشمس للناس وكالعافية للبدن .

ولما بلغ الإمام الشافعى أن أهل المغرب يتوسلون إلى الله تعالى بالإمام مالك لم ينكر عليهم .

وقال الإمام أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه : من كانت له إلى الله حاجة وأراد قضاءها فليتوسل إلى الله بالإمام الغزالى .

وذكر العلامة ابن حجر فى كتابه المسمى :

بـ (الصواعق المحرقة فى الرد على أهل البدع والـزندقة) أن الإمام الشافعى رضى الله عنه توسل بأهل البيت النبوى حيث قال :

آل النبىّ ذريـعتـى
وهـــم إليه وسيلتـى
أرجو بهم أعطى غـدا
بيدى اليمين صحيفتى

وذكـر العـلامـة السيد طاهر بن محمد بن هاشم باعلوى فى كتـــابـــه المسمى (مجمـــع الأحباب فى ترجمة الإمام أبى عيسى الترمذى صاحب السنن) أنـه رأى فى المنام ربّ العزّة فسأله عما يحفظ عليه الإيمان حتى يتوفاه عليه ، قال : فقال لى : قل بعد صلاة ركعتى الفجر قبل صلاة فرض الصبح : إلهى بحرمة الحسن

وأخيه وجـده وبنيه وأمه وأبيه نجنى من الغم الـذى أنـا فيه ، يا حيّ يا قيوم ياذا الجـلال والإكـرام أسألك أن تحيى قلبى بنور معرفتك يا الله يا الله يا الله يا أرحم الـراحمـين » فكان الإمـام الـترمـذى يقول ذلك دائما بعد صلاة الصبح سنة ويأمر أصحابه به ويحثهم على فعله وعلى المواظبة عليه وهو إمام حجة يقتدى به .

بل هذا الأمر أعنى التوسل لم ينكره أحد قط من السلف والخلف حتى جاء هؤلاء المنكرون .

وفى الأذكار للإمام النووى « أن النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم أمر أن يقول العبد بعد ركعتى الفجر (ثلاثـا) اللهم ربّ جبريل ومكائيل وإسرافيل ومحمد صلى الله عليه وسلم

أجرنى من النـار » قال العلامة ابن علان فى شرح الأذكار : خص هؤلاء بالذكر للتوسل بهم فى قبول الدعاء ، وإلا فهو سبحانه وتعالى رب جميع المخلوقات ، فأفهم ذلك أنه من التوسل المشروع .

وفى شرح حزب البحر للإمام زروق قال بعد ذكر كثير من الأخيار . اللهم إنا نتوسل إليك بهم فإنهم أحبوك ، وما أحبوك حتى أحببتهم ، فبحبك إياهم وصلوا إلى حبك ونحن لم نصل إلى حبهم فيك ، فتمم لنا ذلـك مع العافية الكاملة الشاملة حتى نلقاك يا أرحم الراحمين .

ولبعض العـارفـين دعـاء مشتمل على قوله (اللهم ربّ الكعبـة وبـانيهـا وفـاطمة وأبيها

وبعلها وبنيها نوّر بصرى وبصيرتى وسرى وسريرتى) قال بعض العارفين وقد جرب هذا الدعاء لتنوير البصر ؛ وأن من ذكره عند الاكتحال نوّر الله بصره ، وذلك من الأسباب العادية ، وهى لا تأثير لها ، والمؤثر هو الله تعالى وحده لا شريك له ، فكما أن الله تعالى جعل الطعام والشراب سببين للشبع والرى ، لا تأثير لهما والمؤثر هو الله تعالى وحده ، وجعل الطاعة سببا للسعادة ونيل الدرجات جعل أيضا التوسل بالأخيار الذين عظمهم الله تعالى وأمر بتعظيمهم سببا لقضاء الحاجات ، فليس فى ذلك كفر ولا إشراك .

ومن تتبع أذكار السلف والخلف وأدعيتهم وأورادهم وجد فيها شيئا كثيرا فى التوسل ولم

ينكر عليهم أحد فى ذلك حتى جاء هؤلاء المنكرون ، ولو تتبعنا ما وقع من أكابر الأمة فى التوسل لامتلأت بذلك الصحف وفيما ذكر كفاية ومقنع لمن كان بمرأى من التوفيق ومسمع ، وإنما أطلت الكلام فى ذلك ليتضح الأمر لمن كان متشككا فيه غاية الإيضاح لأن كثيرا من المنكرين للتوسل يلقون إلى كثير من الناس شبهات يستميلونهم بها إلى معتقدهم الباطل .

فعسى أن يقف على هذه النصوص من أراد الله حفظه من قبول شبهاتهم فلا يلتفت إليها ويقيم عليهم الحجة فى إبطالها ، فعليك باتباع الجمهور والسواد الأعظم وإلا كنت مشاققا لله ورسوله ومتبعا غير سبيل المؤمنين ، وقد قال

تعالى (ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهـدى ويتبـع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا) وقال رسول الله صلى الله عليه وآلـه وسلم « عليكم بالسـواد الأعظم فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية » وقـال صلى الله عليه وآلـه وسلم « من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه » .

وقـد ذكـر العـلامـة ابن الجوزى فى كتابه المسمى (تلبيس إبليس) أحـاديث كثـيرة فى التحذير من مفارقة السواد الأعظم :

منها حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه خطب فى الجابية فقال « من أراد بحبوحة الجنة فليلزم

الجماعة ، فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد »

وحديث عرفجة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول « يد الله على الجماعة والشيطان مع من يخالف الجماعة »

وحديث أسامة بن شريك رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول « يد الله على الجماعة فإذا شذ الشاذ منهم اختطفته الشياطين كما يختطف الذئب الشاذة من الغنم »

وحديث معاذ بن جبل رضى الله عنه عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال « إن

الشيطان ذئب الإنســان كذئب الغنم يأخـذ الشــاة الشــاذة القــاصية والنـائية ، فإياكم والشعاب وعليكم بالجماعة العامة والمسجد »

وحـديث أبى ذرّ رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال « اثنان خير من واحـد وثـلاثـة خير من اثنـين وأربعة خير من ثلاثة ، فعليكم بالجماعة فإن الله تعالى لن يجمع أمتى إلا على هدى »

فهؤلاء المنكـرون للتـوسـل والـزيارة فارقوا الجماعة والسواد الأعظم وعمدوا إلى آيات كثيرة من آيات الـقــرآن الـتى نزلت فى المشركــين فحملوها على المؤمنين الذين تقع منهم الزيارة والتوسل وتوصلوا بذلك إلى تكفير أكثر الأمة من العلماء والصلحــاء والعبــاد والـزهـاد وعـوامّ

الخلق ، وقالوا إنهم مثل أولئك المشركين الذين قالوا (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) وقد علمت أن المشركين اعتقدوا ألوهية غير الله تعالى واستحقاقه العبادة ، وأما المؤمنون فلم يعتقد أحد منهم ألوهية غير الله واستحقاقه العبادة ، فكيف يجعلونهم مثل أولئك المشركين (سبحانك هذا بهتان عظيم) .

الرد على معتقدات المنكرين للزيارة والتوسل

ومما يعتقده المنكرون للزيارة والتوسل منع طلب الشفاعة من النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم ، ويقولون إن الله تعالى قد قال فى كتابه العزيز (من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه) وقال تعالى (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) فالطالب للشفاعة لا يعلم حصول الإذن للنبىّ صلى الله عليه وآله وسلم فى أنه يشفع له فكيف

يطلب منه الشفاعة ولا يعلم أنه ممن ارتضى فكيف يطلب الشفاعة ؟ واحتجاجهم هذا مردود باطل بالأحاديث الصحيحة الصريحة فى حصول الإذن للنبىّ صلى الله عليه وآله وسلم بالشفاعة للمؤمنين .

وقد صحت الأحاديث بأنه صلى الله عليه وآله وسلم يشفع لمن قال بعد الأذان : اللهم رب هذه الدعوة التامة إلى آخر الدعاء المشهور ، ولمن صلى على النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم يوم الجمعة ، ولمن زار قبره صلى الله عليه وآله وسلم .

وجاءت أحاديث كثيرة فى أعمال من عملها حلت له الشفاعة ولو ذكرناها لطال الكلام .

وجاءت أحاديث صريحة فى شفاعته لعصاة

أمته كقوله صلى الله عليه وآله وسلم « شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى »

وذكـــر كثـير من المفسرين فى قولـه تعـالى (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) أن كل من مات مؤمنا كان ممن ارتضى فيدخل فى شفاعته صلى الله عليه وسلم ،

فثبت بهذا كله أن الشفـاعـة ثابتة ومأذون للنبىّ صلى الله عليه وآله وسلم فيها لكل من مات مؤمنا . فالطالب للشفاعة كأنه يتوسل إلى الله تعالى بالنبىّ صلى الله عليه وآله وسلم أن يحفظ عليه الإيمان إلى أن يتوفاه الله فيدخل فى شفاعة النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم ويكون من أهلها ، وهذا كله ظاهر لا يخفى إلا على من انطمست بصيرته والعياذ بالله تعالى .

ومما يعتقده هؤلاء المنكرون للزيارة والتوسل منع النداء للميت والجماد [1] ويقولون إن ذلك كفر وإشراك وعبادة لغير الله تعالى ، وهذا أيضا باطل ومردود ولا مستند لهم فيه ،

وشبهتهم التى يتمكسون بها أنهم يزعمون أن النداء دعاء وكل دعاء عبادة بل الدعاء مخ العبادة ، وحملوا كثيرا من الآيات القرآنية التى نزلت فى المشركين على الموحدين الذين يصدر منهم النداء المذكور وهذا تلبيس فى الدين توصلوا به إلى تضليل كثير من الموحدين .

---

(١) يعنى أن المنكرين للتوسل يقولون : إن الجسم بعد مفارقة الروح صار جمادا ، وهم محجوجون بقول النبى صلى الله عليه وسلم « القبر إما روضة من رياض الجنة وإما حفرة من حفر النار » فالجسم ينعم تبعا لتنعم الروح ويعذب كذلك ، ولو كان جمادا لما نعم أو عذب . اهـ مصححه .

وحاصل الرد عليهم أن النداء قد يسمى دعاء كما فى قوله تعالى (لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا) لكنه لا يسمى عبادة ، فليس كل دعاء عبادة .

ولو كان كل نداء دعاء وكل دعاء عبادة لشمل ذلك نداء الأحياء والأموات ، فيكون كل نداء ممنوعا مطلقا سواء كان للأحياء والأموات أم للحيوانات والجمادات ، وليس الأمر كذلك ، وإنما النداء الذى يكون عبادة هو نداء من يعتقد ألوهيته واستحقاقه للعبادة فيرغبون إليه ويخضعون بين يديه .

فالذى يوقع فى الإشراك هو اعتقاد ألوهية غير الله تعالى ، أو اعتقاد التأثير لغير الله تعالى . وأما مجرد النداء لمن لا يعتقدون ألوهيته

وتأثيره أو استحقاقه للعبادة فإنه ليس عبادة ولو كان ميتا أو غائبا أو جمادا ، وقد ورد فى أحاديث كثيرة نداء الأموات والجمادات .

فقولهم كل نداء دعاء وكل دعاء عبادة غير صحيح على إطلاقه وعمومه ، ولو كان الأمر كذلك لامتنع نداء الحى والميت فإنهما مستويان فى أن كلا منهما لا تأثير له فى شىء .

ولا يعتقد أحد من المسلمين ألوهية غير الله تعالى ولا تأثير أحد سوى الله تعالى ، فإن قالوا إن نداء الحى والطلب منه لشىء من الأشياء إنما هو لكونه قادرا على فعل ذلك الشىء الذى طلب منه . وأما الميت والجماد فإنه عاجز ولا قدرة له على فعل شىء من الأشياء ، فنقول لهم : اعتقادكم أن الحى قادر على بعض

الاشياء يستلزم اعتقادكم أن العبد يخلق أفعال نفسه الاختيارية وهو اعتقاد فاسد ومذهب باطل .

فإن اعتقـاد أهل السنة والجماعة أن الخالق للعبـاد وأفعالهم هو الله وحده لا شريك له ، والعبد ليس له الا الكسب الظاهرى ، قال الله تعالى (والله خلقكم وما تعملون) وقال تعالى (الله خالق كل شىء) فيستوى الحى والميت والجـماد فى أن كلا منهم لا خلق له ولا تأثير ، والمؤثـر هو الله تعالى وحده ، فالذى يقدح فى التـوحيد هو اعتقـاد التأثير لغير الله أو اعتقاد الألوهية واستحقاق العبادة لغير الله ، وأما مجرد النداء من غير اعتقاد شىء من ذلك فلا ضرر فيه .

والأحـاديث التى ورد فيها النداء للأموات والجمادات من غير اعتقاد الألوهية والتأثير كثيرة :

منهـا حديث الأعمى الذى تقدمت روايته عن عثمان بن حنيف رضى الله عنه فإنه فيه « يا محمـد إنى أتـوجـه بك الى ربـك » وتقدم أن الصحابة رضى الله عنهم استعملوا ذلك الدعاء بعد وفاته صلى الله عليه وآله وسلم .

وحديث بلال بن الحارث المتقدم أيضا فإن فيه : أنه جاء الى قبر النبى صلى الله عليه وآله وسلم وقـال : يا رسول الله استسق لأمتك ، ففيه النـداء بعـد وفـاتـه صلى الله عليه وآلـه وسلم ،والخطاب بالطلب منه أن يستسقى لأمته .

ومن ذلك الأحاديث الواردة فى زيارة القبور فإن فى كثير منها النداء والخطاب كقوله « السلام عليكم يا أهل القبور السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين وإنا شاء الله بكم لاحقون » ففيها نداء وخطاب ، وهى أحاديث كثيرة لا حاجة إلى الإطالة بذكرها .

وتقدم أن السلف والخلف من أهل المذاهب الأربعة استحبوا للزائر أن يقول تجاه القبر الشريف « يا رسول الله إنى جئتك مستغفرا من ذنبى مستشفعا بك إلى ربى »

وقد جاءت صورة النداء أيضا فى التشهد الذى يقرؤه الإنسان فى كل صلاة حيث يقول : السلام عليك أيها النبىّ ورحمة الله وبركاته .

وصح عن بلال بن الحارث رضى الله عنه أنه ذبح شاة عام القحط المسمى عام الرمادة فوجدها هزيلة فصار يقول : وامحمداه وامحمداه .

وصح أيضا أن أصحاب النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم لما قاتلوا مسيلمة الكذاب كان شعارهم وامحمداه وامحمداه .

وفى الشفاء للقاضى عياض أن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما خدلت رجله مرة فقيل له اذكر أحب الناس إليك ، فقال وامحمداه فانطلقت رجله .

وجاء فى الخطاب والنداء للجمادات أحاديث كثيرة منها : أنه صلى الله عليه وآله وسلم كان

إذا نزل أرضا قال « يا أرض ربى وربك الله » فهـذا نداء وخـطاب لجماد ولا كفر ولا إشراك فيه ، إذ ليس فيه اعتقـاد ألـوهية واستحقـاق عبادة ولا اعتقاد تأثير لغير الله تعالى .

وقـد ذكـر الفقهـاء فى آداب السفـر : أن المسافر إذا انفلتت دابته بأرض ليس بها أنيس فليقل : يا عباد الله احبسوا ، وإذا ضل شيئا أو أراد عونـا فليقـل يا عبـاد الله أعينـونى أو أغيثونى ، فإن لله عبادا لا تراهم .

واستـدل الفقهـاء على ذلـك بما رواه ابن السنى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إذا انفلتت دابة أحدكم بأرض فلاة فليناد : يا عباد الله احبسوا فإن لله عبادا يحبسونه » ففيه

نداء وطلب نفع أى التسبب فى ذلك من عباد الله الذين لم يشاهدهم . وفى حديث آخر رواه الطبرانى أنه صلى الله عليه وآله وسلم قال « إذا أضل أحدكم شيئا أو أراد عونا وهو بأرض ليس فيها أنيس فليقل يا عباد الله أعينونى » وفى رواية « أغيثونى فإن لله عبادا لا ترونهم » قال العلامة ابن حجر فى حاشيته على إيضاح المناسك : وهو مجرب كما قاله الراوى للحديث المذكور .

وروى أبو داود وغيره عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا سافر فأقبل الليل قال « يا أرض ربى وربك الله ، أعوذ بالله من شرك ومن شرّ ما فيك ومن شرّ ما خلق فيك وشرّ

مايدب عليك ، أعوذ بالله من أسد وأسود ومن الحية والعقرب ومن شرّ ساكن البلد ووالد وما ولد ، » وذكر الفقهاء أنه يسن للمسافر الإتيان بهذا الدعاء عند إقبال الليل ، وفيه النداء والخطاب للجماد .

وروى الترمذى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما والدارمى عن طلحة بن عبيد الله رضى الله عنه « أنه صلى الله عليه وآله وسلم كان إذا رأى الهلال قال : ربى وربك الله » ففيه خطاب للجماد .

وصح « أنه لما توفى ﷺ أقبل أبو بكر رضى الله عنه حين بلغه الخبر ، فدخل على رسول الله ﷺ فكشف عن وجهه ثم أكب عليه فقبله ثم بكى وقال : بأبى وأمى طبت حيا وميتا ،

اذكرنا يامحمد عند ربك ولنكن من بالك » .
وفى رواية للإمـام أحمد « فقبل جبهته ثم قال وانبياه ، ثم قبلهـا ثانيا وقال : واصفياه ، ثم قبلهـا ثالثا وقال : واخليلاه » ففى ذلك نداء وخطاب له صلى الله عليه وآله وسلم بعد وفاته

ولما تحقق عمر رضى الله عنه وفاته ﷺ بقول أبى بكر رضى الله عنه قال وهو يبكى : بأبى أنت وأمى ياسول الله لقد كان لك جذع تخطب الناس عليه فلما كثروا واتخذت منبرا لتسمعهم حن الجـذع لفـراقك حتى جعلت يدك عليه فسكن ، فأمتــك أولى بالحنــين عليك حين فارقتهم ، بأبى أنت وأمى يارسول الله لقد بلغ من فضيلتك عند ربك أن جعل طاعتك طاعته فقـال : (من يطع الـرسـول فقد أطاع الله)

بأبى أنت وأمى يا رسول الله لقد بلغ من فضيلتك عنده أن بعثك آخر الأنبياء وذكرك فى أولهم فقال (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى) بأبى أنت وأمى يارسول الله لقد بلغ من فضيلتك عنده أن أهل النار يودون أن يكونوا أطاعوك وهم بين أطباقها يعذبون يقولون (يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا) بأبى أنت وأمى يارسول الله لقد اتبعك فى قصر عمرك مالم يتبع نوحا فى كبر سنه وطول عمره. فانظر إلى هذه الألفاظ التى نطق بها عمر رضى الله عنه فقد تعدد فيها النداء له صلى الله عليه وآله وسلم بعد وفاته وقد رواها كثير من أئمة الحديث ، وذكرها القاضى عياض فى الشفاء والقسطلانى فى المواهب

والغـزالى فى الإحياء وابن الحـاج فى المـدخـل فيبطل بها وبغيرها من الأدلة قول المانعين للنداء مطلقا القائلين إن كل نداء دعاء وكل دعاء عبادة .

وروى البخارى عن أنس رضى الله عنه أن فاطمة رضى الله عنها بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قالت لما توفى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « يا أبتاه أجاب ربا دعاه ؛ يا أبتاه جنة الفردوس مـأواه ، يا أبتاه إلى جبريل ننعاه ، وفى رواية : إلى جبريل نعاه » والنعى هو الإخبـار بالموت ؛ ففى هذا الحديث أيضا نداؤه صلى الله عليه وآله وسلم بعد وفاته .

ورثته عمته صفية بمراثى كثيرة ، قالت فى مطلع قصيدة منها :

ألا يا رسول الله كنت رجاءنا

وكنت بنا برّا ولم تك جافيا

ففى هذا البيت أيضا نداؤه صلى الله عليه وآله وسلم بعد وفاته ولم ينكر عليهاأحد من الصحابة مع حضورهم وسماعهم له .

ومما جاء من النداء للميت التلقين له بعد الدفن ، وقد ذكره كثير من الفقهاء واستندوا فى ذلك إلى حديث الطبرانى عن أبى أمامة رضى الله عنه واعتضد بشواهد كثيرة . وصورته أن يقول للميت عند قبره بعد دفنه : يا عبد الله ابن أمة الله اذكر العهد الذى خرجت عليه من الدنيا شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله ، وأن الجنة حقّ وأن النار حقّ وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله

يبعث من فى القبور ، قل . رضيت بالله ربا ، وبالإسلام دينا ، وبمحمد صلى الله عليه وآله وسلم نبيا وبالكعبة قبلة ، وبالمسلمين إخوانا ، ربى الله لا إلـه إلا هو ربّ العرش العظيم . ففى التلقـين الخـطاب والنداء للميت فكيف يمنعون النداء مطلقا ؟

ومـن النـــداء للميت ما جاء فى الحـــديث المشهور حيث نادى النبىّ صلى الله عليه وسلم كفـار قريش المقتولين يوم بدر بعد إلقائهم فى القليب ، رواه البخـارى وأصحاب السنن ، وذكـروا أن النبىّ صلى الله عليه وسلم جعـل ينـــاديهم بأسـمائهم وأسـماء آبـائهم ويقـول « أيسركم أنكم أطعتم الله ورسـوله ؟ فإنا قد

وجـدنـا ما وعـدنـا ربنـا حقـا ، فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا ؟ » .

وأمـا ما جاء من الآثار عن الأئمة الأحبار والعلماء الأخيار والأولياء الكبـــار مما يدل على جواز ذلك النداء والخطاب فشيء كثير تنقضى دون نقله الأعـمار ومضى على ذلـك القـرون والأعصـار ولا وقع منهم إنكار ، فكيف يجوز الإقـدام على تكفـير المسلمين بشيء قام ثبوته بالـبراهين . وفى الحديث الصحيح « من قال لأخيه المسلم يا كافر فقد باء بها أحدهما إن كان كما قال وإلا رجعت عليه » قال العلماء : ترك قتل ألف كافر أولى من إراقة دم امرىء مسلـم ، فيجب الاحتياط في ذلك فلا يحكم على أحد

من أهل القبلة بالكفر إلا بأمر واضح قاطع للإسلام .

ورأيت رسـالـة للشيخ محمـد بن سليمان الكـردى المدنى صاحب الحواشى على مختصر بافضـل فى الفقه على مذهب الإمام الشافعى رضى الله عنه ، قال فى تلك الرسالة يخاطب محمد بن عبد الوهاب حين قام بالدعوة ، وكان محمد بن عبد الوهاب من تلامذة الشيخ محمد ابن سليمان المذكور وقرأ عليه بالمدينة المنورة ، قال فى تلك الرسالة : يا ابن عبد الوهاب سلام على من اتبع الهدى ، فإنى أنصحك لله تعالى أن تكف لسانك عن المسلمين ، فإن سمعت من شخص أنه يعتقد تأثير ذلك المستغاث به من دون الله تعـالى فعـرّفـه الصواب واذكر له

الأدلة على أنه لا تأثير لغير الله تعالى ، فإن أبى فكفره حينئذ بخصوصه ، ولا سبيل لك إلى تكفير السواد الأعظم من المسلمين وأنت شاذ عن السواد الأعظم ، فنسبة الكفر إلى من شذ عن السواد الأعظم أقرب لأنه اتبع غير سبيل المؤمنين ، قال تعالى (ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا) و « إنما يأكل الذئب من الغنم القاصية » اهـ .

بيان أن المانعين للزيارة والتوسل قد تجاوزوا الحد

والحاصل أن هؤلاء المانعين للزيارة والتوسل قد تجاوزوا الحد فكفروا أكثر الأمة واستحلوا دماءهم وأموالهم وجعلوهم مثل المشركين الذين كانوا فى زمن النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم .

وقالوا إن الناس مشركون فى توسلهم بالنبىّ صلى الله عليه وآله وسلم وبغيره من الأنبياء والأولياء والصالحين وفى زيارتهم قبره صلى الله عليه وآله وسلم وندائهم له بقولهم يا رسول الله نسألك الشفاعة ، وحملوا الآيات القرآنية التى نزلت فى المشركين على خواص المؤمنين وعوامهم ، كقوله تعالى (فلا تدعو مع الله أحدا) وقوله تعالى (ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين) وقوله تعالى (فلا تدع مع الله إلها آخر فتكون من المعذبين) وقوله تعالى (له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشىء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء

الكافرين إلا فى ضلال) وقوله تعالى (والذين تدعــون من دونـه ما يملكون من قطمير إن تدعــوهم لا يسمعــوا دعـائكم ولـو سمعـوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئـك مثل خبير) وقوله تعالى (قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضرّ عنكم ولا تحويلا أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الـوسيلة أيهم أقـرب ويرجـون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذورا) وأمثال هذه الآيات فى القرآن كثير ، كلها حملوا الدعاء فيها على النداء ثم حملوها على المؤمنين الموحدين .

وقـالوا : إن من استغاث بالنبىّ صلى الله عليه وآلـه وسلم أو بغيره من الأنبياء والأولياء

والصالحين أو ناداه أو سأله الشفاعة فإنه يكون مثل هؤلاء المشركين ويكون داخلا فى عموم هذه الآيات ، وإنهم مثل المشركين الذين كانوا يقولون (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) فإن المشركين ما اعتقدوا فى الأصنام التأثير وأنها تخلق شيئا بل كانوا يعتقدون أن الخالق هو الله تعالى بدليل قوله تعالى (ولئن سألتهم من خلقهم ليقولنّ الله ، ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولنّ خلقهن العزيز العليم) فما حكم الله عليهم بالكفر والإشراك إلا لقولهم (ليقربونا إلى الله زلفى) فهؤلاء مثلهم .

وقالوا : إن التوحيد نوعان : توحيد الربوبية وهو الذى أقرّ به المشركون ، وتوحيد الألوهية

وهو الذى أقرّ به الموجدون وهو الذى يدخلك فى دين الإسلام . وأما توحيد الربوبية فلا يكفى .

وكلامهم كله باطل لأن الدعاء الذى فى الآيات بمعنى العبادة وهم لبّسوا على الخلق وجعلوه بمعنى النداء وقدعلمت بطلانه من النصوص السابقة . وأما جعلهم التوحيد نوعين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية فباطل أيضا ، فإن توحيد الربوبية هو توحيد الألوهية ، ألا ترى إلى قوله تعالى (ألست بربكم ؟ قالوا بلى) ولم يقل ألست بإلهكم ، فاكتفى منهم بتوحيد الربوبية ، ومن المعلوم أن من أقرّ لله بالربوبية فقد أقرّ له بالألوهية إذ ليس الرب غير الإله بل هو الإله بعينه . وفى

الحـديث « إن الملكـين يسـألان العبد فى قبره فيقــولان له : من ربــك ؟ ولم يقـولا له من إلهك ؟ » فدل على أن توحيد الربوبية هو توحيد الألوهية . ومن العجب أن هؤلاء القوم يأتيهم المسلم فيقول : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله ، فيقولون له أنت لم تعرف التــوحيد ، وتــوحيدك هذا توحيد الـربـوبية ومـا عرفت توحيد الألـوهية ، فيستحلون دمه وماله بالتلبيسات الباطلة ، وهل للكافر توحيد صحيح ؟ فإنــه لو كان للكافر توحيد صحيح لأخرجه من النار إذ لا يبقى فيها موحد .

فهل سمع المسلمون فى الأحاديث والسير أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا قدمت عليه أجـلاف العرب ليسلموا على يده يفصل

لهم توحيد الربوبية والألوهية ، ويخبرهم أن توحيد الألوهية هو الذى يدخلهم فى دين الإسلام أو يكتفى منهم بمجرد الشهادتين وظاهر اللفظ ويحكم بإسلامهم ، فما هذا الافتراء والزور على الله ورسوله ، فإن من وحد الرب فقد وحد الإله ، ومن أشرك بالربّ أشرك بالإله ، فليس للمسلمين إله غير الرب ، فإذا قالوا لا إله إلا الله إنما يعتقدون أنه هو ربهم فينفون الألوهية عن غيره كما ينفون الربوبية عن غيره أيضا ويثبتون له الوحدانية فى ذاته وصفاته وأفعاله .

والذى أوقع المشركين فى الشرك والكفر ليس مجرد قولهم (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) كما زعم هذا القائل بل اعتقادهم أن

غير الله قد يكون إلها يستحق العبادة ، وإن كانوا يعتقدون أن الخالق والمؤثر هو الله تعالى ، فلما اعتقدوا ألوهية غير الله واستحقاقه وأقيمت عليهم الحجة بأنهم لا يملكون لكم ضرا ولا نفعا ولا يخلقون وهم يخلقون قالوا (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) فاعتقاد الألوهية واستحقاق العبادة لغيره هو الذى أوقعهم فى الشرك ولم ينفعهم اعتقادهم أن الخالق والمؤثر هو الله مع وجود اعتقادهم ألوهية غير الله واستحقاقه العبادة . وأما المسلمون فإنهم لله الحمد بريئون من ذلك إذ لا يعتقدون شيئا يستحقّ الألوهية والعبادة غير الله ، فهذا هو الفرق بين الحالين . وأما هؤلاء الجاهلون المكفرون للمسلمين فإنهم لما لم يعرفوا الفرق

بين الحالتين تخبطوا وقالوا : إن التوحيد نوعان : توحيد الربوبية ، وتوحيد الألوهية ، وتوصلوا بذلك إلى تكفير المسلمين .

فتأمل فيما تقدم من النصوص يتضح لك الحال إن شاء الله تعالى وتعلم أن ما عليه السواد الأعظم هو الحق الذى لا محيص عنه ، ومما يعتقده هؤلاء الملاحدة المكفرون للمسلمين أن قصد الصالحين والاعتقاد فيهم والتبرّك بهم شرك أكبر وهذا أيضا باطل ، فإن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أمر صاحبيه عمر بن الخطاب وعليّ بن أبى طالب رضى الله عنهما أن يقصدا أويسا القرنى ويسألاه الدعاء والاستغفار كما فى صحيح مسلم .

جواز التبرك بآثار الصالحين

وأمـا التبرّك بآثار الصالحين فقد كان الصحابة رضى الله عنهم يزدحمون على ماء وضوئه يتبرّكون به ، وإذا تنخم أو بصق يأخذون ذلك ويتمسحون به ، وازدحموا على الحلاق عند حلق رأسه صلى الله عليه وآله وسلم واقتسموا شعره يتبركون به . وشرب عبد الله بن الزبير دمه صلى الله عليه وآله وسلم لما احتجم . وشربت أم أيمن بوله فقال لها : صحة يا أم أيمن ، وكل ذلك ثابت فى الأحاديث الصحيحة ولا ينكر ذلك إلا جاهل أو معاند ، بل ثبت « أنه صلى الله عليه وآله وسلم جاء سقاية العباس رضى الله عنه ليشرب من ماء السقاية ، فأمر العباس ابنه عبد الله أن

يأتى للنبىّ صلى الله عليه وسلم بماء آخر من الـــدار غير ما يشرب منـــه المسلمـــون لأنـــه استقـذره ، وقـال : يا رسـول الله هذا تمسـه الأيدى نأتيك بماء غيره ، فقال لا إنما أريد بركة المسلمين وما مسته أيديهم » . فإذا كان رسول الله صلى الله عليه وآلـه وسلم يقـول ذلك فما بالـك بغـيره ، فكـل مسلم له نور وبـركة ، ولا نعتقد التأثير لغير الله تعالى ، فطلب بركة الصـالحين بالتماس آثارهم ليس فيه شىء من الإشراك ولا الحرمة ، وإنما هؤلاء القوم يلبسون على المسلمين توصلا إلى أغراضهم ، فلا حول ولا قوّة إلا بالله العـلى العظيم ، فلا يعتقدون موحـــدا إلا من تبعهم فيما يقـــولـــون فصـار الموحدون على زعمهم أقل من كل قليل .

بيان ردود أهل العلم على محمد بن عبد الوهاب

كان محمد بن عبد الوهاب الذى ابتدع هذه البدعة يخطب للجمعة فى مسجد الدرعية ويقول فى كل خطبه : ومن توسل بالنبى فقد كفر ، وكان أخوه الشيخ سليمان بن عبد الوهاب من أهل العلم ، فكان ينكر عليه إنكارا شديدا فى كل ما يفعله أو يأمر به ولم يتبعه فى شىء مما ابتدعه ، وقال له أخوه سليمان يوما : كم أركان الإسلام يا محمد بن عبد الوهاب ؟ فقال خمسة ، فقال أنت حعلتها ستة ، السادس : من لم يتبعك فليس بمسلم هذا عندك ركن سادس للإسلام .

وقال رجل اخر يوما لمحمد بن عبد الوهاب : كم يعتق الله كل ليلة فى رمضان ؟ فقال له يعتق فى كل ليلة مائة ألف ، وفى آخر ليلة يعتق مثل ما أعتق فى الشهر كله ، فقال له لم يبلغ من اتبعك عشر عشر ما ذكرت فمن هؤلاء المسلمين الذين يعتقهم الله تعالى وقد حصرت المسلمين فيك وفيمن اتبعك ، فبهت الذى كفر .

ولما طال النزاع بينه وبين أخيه خاف أخوه أن يأمر بقتله فارتحل إلى المدينة المنورة وألف رسالة فى الرد عليه وأرسلها له فلم ينته . وألف كثير من علماء الحنابلة وغيرهم رسائل فى الرد عليه وأرسلوها له فلم ينته .

وقال له رجل آخر مرة وكان رئيسا على قبيلة

بحيث إنه لا يقدر أن يسطو عليه : ما تقول إذا أخبرك رجل صادق ذو دين وأمانة وأنت تعرف صدقه بأن قوما كثيرين قصدوك وهم وراء الجبل الفلانى فأرسلت ألف خيال ينظرون القوم الذين وراء الجبل فلم يجدوا أثرا ولا أحدا منهم ، بل ما جاء تلك الأرض أحد منهم أتصدق الألف أم الواحد الصادق عندك ؟ فقال أصدق الألف ، فقال له : إن جميع المسلمين من العلماء الأحياء والأموات فى كتبهم يكذبون ما أتيت به ويزيفونه فنصدقهم ونكذبك ، فلم يعرف جوابا لذلك .

وقال له رجل آخر مرة : هذا الدين الذى جئت به متصل أم منفصل ؟ فقال له حتى مشايخى ومشايخهم إلى ستمائة سنة كلهم

مشركـــون ، فقـال له الـرجـل : إذن دينـك منفصل لا متصل ، فعمن أخذته ؟ فقال وحى إلهـام كالخضر ، فقـال له : إذن ليس ذلـك محصورا فيك ، كل أحد يمكنه أن يدعى وحى الإلهام الذى تدعيه ، ثم قال له : إن التوسل مجمع عليه عند أهل السنة حتى ابن تيمية فإنه ذكـر فيه وجهين ولم يذكر أن فاعله يكفر به ، حتى الرافضة والخوارج والمبتدعة وكافة المبتدعة يقـولون بصحة التوسل به صلى الله عليه وآله وسلم ، فلا وجه للك فى التكفير أصلا ، فقال له محمد بن عبد الوهاب : إن عمر استسقى بالعباس فلم لم يستسـق بالنبى صلى الله عليه وآلـه وسلم ؟ ومقصـد محمد بن عبد الوهاب بذلك أن العباس كان حيا وأن النبىّ صلى الله

عليه وآله وسلم ميت فلا يستسقى به ، فقال له ذلك الرجل : هذا حجة عليك ، فإن استسقاء عمر بالعباس إنما كان لإعلام الناس بصحة الاستسقاء والتوسل بغير النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ، وكيف تحتج باستسقاء عمر بالعباس وعمر هو الذى روى حديث توسل آدم بالنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قبل أن يخلق ، فالتوسل بالنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم كان معلوما عند عمر وغيره ، إنما أراد عمر أن يبين للناس ويعلمهم صحة التوسل بغير النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ، فبهت وتحير وبقى على عماوته ومقابحه الشنيعة .

بيان طرف من مقابحه

ومن مقابحه أنه لما منع الناس من زيارة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم خرج ناس من

الأحساء وزاروا النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وبلغه خبرهم ، فلما رجعوا مروا عليه بالدرعية ، فأمر بحلق لحاهم ثم أركبهم مقلوبين من الدرعية إلى الأحساء .

وبلغه مرة أن جماعة من الذين لم يتابعوه من الآفاق البعيدة قصدوا الزيارة والحج وعبروا على الدرعية ، فسمعه بعضهم يقول لمن اتبعه : خلوا المشركين يسيرون فى طريق المدينة ، والمسلمين : يعنى أتباعه يخلفون معنا .

وكان ينهى عن الصلاة على النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ويتأذى من سماعها وينهى عن الإتيان بها ليلة الجمعة وعن الجهر بها على المنائر ، ويؤذى من يفعل ذلك ويعاقبه أشد العقاب ، حتى إنه قتل رجلا أعمى كان مؤذنا

صالحا ذا صوت حسن نهاه عن الصلاة على النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فى المنارة بعد الأذان فلم ينته وأتى بالصلاة على النبى صلى الله عليه وآله وسلم فأمر بقتله فقتل ، ثم قال : إن الربابة فى بيت الخاطئة : يعنى الزانية أقل إثما ممن ينادى بالصلاة على النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فى المنائر ، ويلبس على أصحابه بأن ذلك كله محافظة على التوحيد . فما أفظع قوله وما أشنع فعله .

وأحرق دلائل الخيرات وغيرها من كتب الصلاة على النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ويتستر بقوله : إن ذلك بدعة وإنه يريد المحافظة على التوحيد .

وكان يمنع أتباعه من مطالعة كتب الفقه

والتفسير والحديث وأحرق كثيرا منها ، وأذن لكل من اتبعه أن يفسر القرآن بحسب فهمه حتى همج الهمج من أتباعه ، فكان كل واحد منهم يفعل ذلك ولو كان لا يحفظ القرآن ولا شيئا منه ، فيقول الذى لا يقرأ منهم لآخر يقرأ : اقرأ عليّ حتى أفسر لك ، فإذا قرأ عليه يفسره برأيه ، وأمرهم أن يعملوا ويحكموا بما يفهمونه وجعل ذلك مقدما على كتب العلم ونصوص العلماء .

وكان يقول في كثير من الأقوال الأئمة الأربعة ليست بشيء . وتارة يتستر ويقول : إن الأئمة على حق ويقدح فى أتباعهم من العلماء الذين ألفوا فى المذاهب الأربعة وحرروها ويقول إنهم ضلوا وأضلوا وتارة يقول : إن

الشريعة واحدة فما لهؤلاء جعلوها مذاهب أربعة هذا كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم لا نعمل إلا بهما ولا نقتدى بقول مصرى وشامى وهندى : يعنى بذلك أكابر علماء الحنابلة وغيرهم ممن لهم تآليف فى الرد عليه ، فكان ضابط الحق عنده ما وافق هواه وإن خالف النصوص الشرعية وإجماع الأمة ، وضابط الباطل عنده مالم يوافق هواه وإن كان على نص جلى أجمعت عليه الأمة .

وكان ينتقص النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم كثيرا بعبارات مختلفة ويزعم أن قصده المحافظة على التوحيد ؛ فمنها أن يقول إنه طارش ، وهو فى لغة أهل المشرق بمعنى الشخص المرسل من قوم إلى آخرين ، فمراده أنه صلى الله عليه وآله

وسلم حامل كتب : أى غاية أمره أنه كالطارش
الذى يرسله الأمير أو غيره فى أمر لأناس
ليبلغهم إياه ثم ينصرف ؛ ومنها أنه كان
يقول : نظرت فى قصة الحديبية فوجدت بها
كذا وكذا ، إلى غير ذلك مما يشبه هذا حتى إن
أتباعه كانوا يفعلون مثل ذلك أيضا ويقولون
مثل قوله بل أقبح مما يقول ويخبرونه بذلك فيظهر
الرضا وربما أنهم قالوا ذلك بحضرته فيرضى
به ، حتى إن بعض أتباعه كان يقول : عصاى
هذه خير من محمد لأنها ينتفع بها فى قتل الحية
ونحوها ومحمد قد مات ولم يبق فيه نفع أصلا
وإنما هو طارش وقد مضى .

قال بعض من ألف فى الرد عليه : إن ذلك

كفر فى المذاهب الأربعة وهو كفر عند جميع أهل الإسلام .

بيان نشأته وظهور أمره

وكان محمد بن عبد الوهاب فى مبتدأ أمره يطلب العلم بالمدينة وأصله من بنى تميم ، وكان من طلبة العلم بالمدينة يتردّد بينها وبين مكة ، فأخذ عن كثير من علماء المدينة منهم : الشيخ محمد بن سليمان الكردى الشافعى والشيخ محمد حياة السند الحنفى ، وكان الشيخان المذكوران وغيرهما من أشياخه يتفرسون فيه الإلحاد والضلال ، ويقولون : سيضل هذا ويضل الله به من أبعده وأشقاه ، فكان الأمر كذلك وما أخطأت فراستهم فيه .

وكان والده عبد الوهاب من العلماء الصالحين فكان أيضا يتفرس فى ولده المذكور

الإلحاد ويذمه كثيرا ويحذر الناس منه ، وكذا أخوه سليمان بن عبد الوهاب فكان ينكر ما أحدثه من البدع والضلالات والعقائد الزائغة . وتقدم أنه ألف كتابا فى الرد عليه .

وكانت ولادة محمد بن عبد الوهاب سنة ١١١١ ألف ومائة وأحد عشر وعاش عمرا طويلا حتى بلغ عمره اثنين وتسعين سنة فإنه توفى سنة ١٢٠٦ ألف ومائتين وستة .

ولما أراد إظهار ما زينه له الشيطان من البدعة والضلالة انتقل من المدينة ورحل إلى المشرق وصار يدعو الناس إلى التوحيد وترك الشرك ، ويزخرف لهم القول ويفهمهم أن ما عليه الناس كله شرك وضلال ويظهر لهم

عقيدتـه شيئـا فشيئـا ، فتبعه كثير من غوغاء الناس وعوام البوادى .

وكـان ابتـداء ظهـور أمـره فى الشرق سنة ١١٤٣ ألف ومـائـة وثلاثة وأربعين ، واشتهر أمره بعد الخمسين وألف ومائة بنجد وقراها ، فتبعه وقام بنصرته أمير الدرعية محمد بن سعود وجعل ذلك وسيلة إلى اتساع ملكه ونفاذ أمره ، فحمل أهل الدرعية على متابعة محمد بن عبد الـــوهـــاب فيما يقـــول فتبعـه أهـل الـدرعية ومـا حولها ، وما زال يطيعه على ذلك كثير من أحياء العـرب حىّ بعـد حى وقبيلة بعد قبيلة حتى قوى أمـره فخافته البادية ، فكان يقول لهم : إنـما أدعـوكم إلى التـوحيد وترك الشرك بالله ، ويزين لهم القـول وهم بوادى فى غاية

الجهل لا يعرفون شيئا من أمور الدين ، فاستحسنوا ما جاءهم به وكان يقول لهم : إنى أدعوكم إلى الدين وجميع ما هو تحت السبع الطباق مشرك على الإطلاق ومن قتل مشركا فله الجنة ، فتابعوه وصارت نفوسهم بهذا القول مطمئنة فكان محمد بن عبد الوهاب بينهم كالنبى فى أمته ، لا يتركون شيئا مما يقول ولا يفعلون شيئا إلا بأمره ويعظمونه غاية التعظيم ، وإذا قتلوا إنسانا أخذوا ماله وأعطوا الأمير محمد بن سعود منه الخمس واقتسموا الباقى ، وكانوا يمشون حيثما مشى ويأتمرون له بما شاء والأمير محمد بن سعود ينفذ كل ما يقول حتى اتسع له الملك .

وكانوا قبل اتساع ملكهم وتطاير شررهم

أرادوا الحج فى دولة الشريف مسعود بن سعيد ابن سعد بن زيد ، وكـانت ولاية الشريف مسعـود إمـارة مكـة سنة ١١٤٦ ستة وأربعين ومائة وألف ، ووفاته سنة ١١٦٥ خمسة وستين ومـائـة وألف فأرسلوا يستأذونه فى الحج وغاية مرادهم إظهـار عقيدتهم وحمل أهـل الحرمين عليها ، فأرسلوا قبل ذلك ثلاثين من علمائهم ظنـا منهم أنهم يفسـدون عقائد أهل الحرمين ويدخلون عليهم الكذب والمين وطلبوا الإذن فى الحج ولو بشىء مقرر عليهم كل عام يدفعونه ، وكان أهل الحرمين قد سمعوا بظهورهم فى نجد وإفسـادهم عقـائـد البـوادى ولم يعرفوا حقيقة ذلـك ، فلما وصل علماؤهم مكة أمر الشريف مسعـود أن يناظر علماء الحرمين العلماء الذين

بعثوهم فناظروهم فوجدوهم ضحكة ومسخرة كحمر مستنفرة فرت من قسورة ، ونظروا إلى عقــائــدهم فإذا هى مشتملة على كثــير من المكفرات فبعد أن أقاموا عليهم الحجة والبرهان أمــر الشريف مسعود قاضى الشرع أن يكتب حجة بكفرهم الظاهر ليعلم به الأول والآخر ، وأمر بسجن أولئك الملاحدة الأنذال ووضعهم فى الســلاسل والأغلال ، فقبض منهم جماعة وسجنهم وفــر البـاقــون ووصلوا إلى الـدرعية وأخبروا بما شاهدوا ، فعتا أميرهم واستكبر ونأى عن هذا المقصـد وتـأخـر إلى أن مضت دولـة الشريف مسعود وتوفى سنة ١١٦٥ خمس وستين ومـائة وألفـ ، وولى إمارة مكة أخوه الشريف مساعد بن سعيد ، فأرسلوا أيضا يستأذنونه فى

الحج فأبى وامتنع من الإذن لهم فضعفت عن الوصول مطامعهم ،

فلما مضت دولة الشريف مساعد وتوفى سنة ١١٨٤ أربع وثمانين ومائة وألف ، وولى إمارة مكة أخوه الشريف أحمد بن سعيد أرسل أمير الدرعية جماعة من علمائهم ، فأمر العلماء أن يختبروهم فاختبروهم فوجدوهم لايتدينون إلا بدين الزنادقة ، فأبى أن يأذن لهم فى الحج .

ثم انتزع إمارة مكة منه ابن أخيه الشريف سرور بن مساعد سنة ١١٨٦ ست وثمانين ومائة وألف ، فأرسلوا فى مدة الشريف سرور يستأذنون فى الحج ، فأجابهم بأنكم إن أردتم

الوصول آخذ منكم فى كل سنة مثل ما آخذ من الـرافضة والأعجام وزيادة على ذلك مائة من الخيل الجياد فعظم عليهم دفع ذلك وأن يكونوا مثل الرافضة .

فلما توفى الشريف سرور سنة ١٢٠٢ ألف ومـائتين واثنين وولى إمارة مكة أخوه الشريف غالب أرسلوا أيضا يستأذنون فى الحج فمنعهم وتهددهم بالركوب عليهم وجهز عليهم جيشا فى سنـة ١٢٠٥ ألف ومـائتـين وخمسة وتتابع بينه وبينهم القتـال والحـرب من سنة ١٢٠٥ ألف ومـائتـين وخمسة إلى سنة ١٢٢٠ ألف ومائتين وعشرين حتى دخلوا مكـة بعـد أن عجز عن دفعهم ووقـع بينـه وبينهم وقعـات كثـيرة قبل دخولهم مكة يطول الكلام بذكرها .

وكانوا فى هذه المدة اتسع ملكهم وتطاير شررهم فملكوا جزيرة العرب فملكوا أولا المشرق ثم إقليم الأحساء والبحرين وعمان ومسكت وقرب ملكهم من بغداد والبصرة وملكوا الحرار بأسرها ثم الخيوف ذوات النخل ثم الحربية والفرع وجهينة ثم ملكوا ما بين مدينة النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم والشام حتى قرب ملكهم من الشام وحلب وملكوا العرب الذين بين الشام وحلب وبغداد وملكوا المدينة ومكة ، وقبل أن يملكوا مكة ملكوا القبائل التى حولها والطائف والقبائل التى حولها ، ولما ملكوا الطائف فى ذى القعدة سنة ١٢١٧ ألف ومائتين وسبعة عشر قتلوا الكبير والصغير والمأمور والأمر ولم ينج إلا من طال

عمره ، وكانوا يذبحون الصغير على صدر أمه ونهبوا الأموال وسبوا النساء وفعلوا أشياء يطول الكلام بذكرها .

ثم قصدوا مكة فى المحرم من سنة ١٢١٨ ألف ومائتين وثمانية عشر ، ولم يكن للشريف طاقة لقتالهم ، فترك لهم مكة ونزل إلى جدّة فخرج ناس من أهل مكة إليهم قبل دخولهم بمرحلتين وأخذوا منهم الأمان لأهل مكة فدخلوها بالأمان .

ثم توجهوا إلى جدة لقتال الشريف غالب فقاتلهم وأطلق عليهم المدافع فلم يستطيعوا دخول جدة ، فارتحلوا إلى ديارهم فى شهر صفر من سنة ١٢١٨ ألف ومائتين وثمانية عشر وأبقوا بمكة من يقوم بحفظها من جماعتهم .

وفى شهر ربيع الأول من السنة المذكورة رجع الشريف غالب من جدة ومعه الباشا صاحب جدة وكثير من العساكر ، وأخرج من كان بمكة من جماعتهم واستولى على مكة كما كان ، ثم تتابع بينه وبينهم الحرب والغزوات إلى سنة ١٢٢٠ عشرين ومائتين وألف ، فتغلبوا وملكوا جميع الأطراف وحاصروا مكة حتى اشتد البلاء وعم الغلاء وأكل الناس الكلاب والجيف ، ثم عقد الشريف غالب معهم الصلح فدخلوا مكة بالصلح واستمر ملكهم بها إلى سنة سبع وعشرين ومائتين وألف .

فأمر مولانا السلطان محمود الوزير المعظم والمشير المفخم بمصر محمد على باشا فجهز عليهم الجيوش حتى أخرجهم من الحرمين ،

ثم بعث الجيوش إلى قتالهم فى ديارهم وسار مع بعض الجيوش بنفسه حتى استأصلهم وقطع دابرهم . وأرخ بعض العلماء تاريخ خروجهم من مكة بقوله قطع دابر الخوارج سنة ١٢٢٧ . والكلام على وقائعهم ومافعلوه بالمسلمين يطول ، فلا حاجة لذكره .

وكان الأمير الأول محمد بن سعود ، فلما مات قام أولاده بعده بما قام به ، ولما مات محمد ابن عبد الوهاب قام أولاده أيضا بما قام به ، وكان الأمير محمد بن سعود وأولاده إذا ملكوا قبيلة سلطوها على من دنا واقترب منها ، ويسلط الأخرى على ما بعدها حتى ملك جميع القبائل ، وإذا أراد أن يغزو بلدة من البلدان كتب لكل قبيلة يريد مسيرها معه كتابا بقدر

الخنصر يطلب منهم الحضور فيأتون إليه ومعهم جميع ما يحتاجون إليه من زاد وغيره ولا يكلفونه بشيء ، وليس له عسكر ولا جند ولا ديوان يحصيهم ، وإذا انتهبوا شيئا يأخذون الأربعة أخماس ويعطونه الخمس ويسيرون معه أينما يسير ألوفا مؤلفة لا يحصيهم إلا الله تعالى ولا يستطيعون مخالفته فى نقير ولا قطمير .

وهذه بلية ابتلى الله بها عباده وهى فتنة من أعظم الفتن التى ظهرت فى الإسلام ، طاشت من بلاياها العقول وحار فيها أرباب العقول ، ولبسوا فيها على الأغبياء ببعض الأشياء التى توهمهم أنهم قائمون بأمر الدين وذلك مثل أمرهم البوادى بإقامة الصلاة والمحافظة على الجمعة والجماعات ومنعهم من الفواحش

الـظاهـرة كالـزنا واللواط وقطع الطريق فأمنوا الطرقات وصاروا يدعون الناس إلى التوحيد ، فصـار الأغبياء الجـاهلون يستحسنـون حالهم ويغفلون ويذهلون عن تكفـيرهم المسلمـين فإنهم كانوا يحكمون على الناس بالكفر من منذ ستـمائـة سنـة ، وغفلوا أيضا عن استباحتهم أمـوال الناس ودماءهم وانتهاكهم حرمة النبىّ صلى الله عليه وآلـه وسلم بارتكـابهم أنـواع التحقير له ولمن أحبه ، وغير ذلك من مقابحهم التى ابتدعوها وكفروا الأمة بها .

وكـانوا إذا أراد أحد أن يتبعهم على دينهم طوعا أو كرها يأمرونه بالإتيان بالشهادتين أولا ثم يقولون له اشهد على نفسك أنك كنت كافرا واشهد على والديك أنهما ماتا كافرين ، واشهد

على فلان وفلان أنه كان كافرا ويسمون له جماعة من أكابر العلماء الماضين فإن شهدوا بذلك قبلوهم وإلا أمروا بقتلهم .

وكانوا يصرحون بتكفير الأمة من منذ ستمائة سنة . وأول من صرّح بذلك محمد بن عبد الوهاب فتبعوه على ذلك ، وإذا دخل إنسان فى دينهم وكان قد حج حجة الإسلام قبل ذلك يقولون له حج ثانيا فإن حجتك الأولى فعلتها وأنت مشرك فلا تسقط عنك الحج ، ويسمون من اتبعهم من الخارج المهاجرين ، ومن كان من أهل بلدتهم يسمونهم الأنصار .

والظاهر من حال محمد بن عبد الوهاب أنه يدعى النبوّة ، إلا أنه ما قدر على إظهار

التصريح بذلك ، وكان فى أول أمره مولعا بمطالعة أخبار من ادعى النبوة كاذبا كمسيلمة الكذاب وسجاح والأسود العنسى وطليحة الأسدى وأضرابهم ، فكأنه يضمر فى نفسه دعوى النبوّة ولو أمكنه إظهار هذه الدعوة لأظهرها .

وكان يقول لأتباعه إنى أتيتكم بدين جديد ويظهر ذلك من أقواله وأفعاله ، ولهذا كان يطعن فى مذاهب الأئمة وأقوال العلماء ، ولم يقبل من دين نبينا صلى الله عليه وآله وسلم إلا القرآن ، ويؤوله على حسب مراده ، مع أنه إنما قبله ظاهرا فقط لئلا يعلم الناس حقيقة أمره فينكشفوا عنه بدليل أنه هو وأتباعه إنما يؤولونه على حسب ما يوافق أهواءهم ، لا بحسب

ما فسره به النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه والسلف الصالح وأئمة التفسير ، فإنه كان لا يقول بذلك ولا يقول بما أمد القرآن من أحاديث النبيّ صلى الله عليه واله وسلم وأقاويل الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين ، ولا بما استنبطه الأئمة من القرآن والحديث ولا يأخذ بالإجماع ولا بالقياس الصحيح .

وكان يدعّى الانتساب إلى مذهب الإمام أحمد رضى الله عنه كذبا وتسترا وزورا ، والإمام أحمد برىء منه ، ولذلك انتدب كثير من علماء الحنابلة المعاصرين له للرد عليه ، وألفوا فى الرد عليه رسائل كثيرة ، حتى أخوه الشيخ سليمان ابن عبد الوهاب ألف رسالة فى الرد عليه كما تقدم

وتمسك فى تكفير المسلمين بآيات نزلت فى المشركين ، فحملها على الموحدين ، وقد روى البخارى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما فى وصف الخوارج أنهم انطلقوا إلى آيات نزلت فى الكفار فجعلوها فى المؤمنين . وفى رواية أخرى عن ابن عمر عند غير البخارى أنه صلى الله عليه وآله وسلم قال « أخوف ما أخاف على أمتى رجل متأوّل للقرآن يضعه فى غير موضعه » فهذا وما قبله صادق على ابن عبد الوهاب ومن تبعه .

وأعجب من ذلك كله أنه كان يكتب إلى عماله الذين هم من أجهل الجاهلين اجتهدوا بحسب فهمكم وانظروا واحكموا بما ترونه مناسبا لهذا الدين ولا تلتفتوا لهذه الكتب فإن

فيهـا الحق والبـاطـل ، وقتل كثيرا من العلماء والصالحين وعوام المسلمين لكونهم لم يوافقون على ما ابتدعه وكان يقسم الزكاة على ما يأمره به شيطانـه وهـواه ، وكـان أصحابه لا يتخذون مذهبـا من المـذاهب بل يجتهـدون كما أمرهـم ويتسترون ظاهرا بمذهب الإمام أحمد ويلبسون بذلك على العامة ، وكان ينهى عن الدعاء بعد الصـلاة ويقول إن ذلك بدعة وإنكم تطلبون بذلك أجرا .

وقد اعتنى كثير من العلماء من أهل المذاهب الأربعة للرد عليه فى كتب مبسوطة عملا بقول النبىّ صلى الله عليه وآلـه وسلم « إذا ظهرت البـدع وسكت العالم فعليه لعنة الله والملائكة والنـاس أجمعـين » وبقوله صلى الله عليه وآله

وسلم « ما ظهر أهل بدعة إلا أظهر الله فيهم حجته على لسان من شاء من خلقه » فلذلك انتدب للردّ عليه علماء المشرق والمغرب من جميع المذاهب ، والتزم بعضهم فى الردّ عليه بأقوال الإمـام أحمـد وأهل مذهبه وسألوه عن مسائل يعرفها أقلّ طلبة العلم فلم يقدر على الجواب عنها لأنه لم يكن له تمكن فى العلوم وإنما عرف هذه النزعات التى زينها له الشيطان .

فممن ألف فى الردّ عليه وسأله عن بعض المسائل فعجز : العلامة الشيخ محمد بن عبد الرحمن بن عفالق ، فإنه ألف كتابا جليلا سماه « تهكم المقلدين بمن ادعّى تجديد الدين » وردّ عليه فى كل مسئلة من المسـائل التى ابتدعها بأبلغ الرد ، ثم سأله عن أشياء تتعلق بالعلوم

الشرعية والأدبية بسؤالات أجنبية عن الرسالة كتبها وأرسلها له فعجز عن الجواب عن أقلها فضلا عن أجلها .

فمن جملة ما سأله عنه قوله أسألك عن قوله تعالى (والعاديات ضبحا) إلى آخر السورة التى هى من قصار المفصل ، كم فيها من حقيقة شرعية وحقيقة لغوية وحقيقة عرفية ؟ وكم فيها من مجاز مرسل ومجاز مركب واستعارة حقيقية وإستعارة وفاقية واستعارة تبعية واستعارة مطلقة واستعارة مجردة واستغارة مرشحة ؟ وأين الوضع والترشيح والتجريد والاستعارة بالكناية والاستعارة التخييلية ؟ وكم فيها من التشبيه الملفوف والمفروق والمفرد والمركب ؟ وما فيها من المجمل والمفصل ؟ وما فيها من الإيجاز

والإطناب والمساواة والإسناد الحقيقى والإسناد المجازى المسمى بالمجاز الحكمى والعقلى ؟ وأى موضع فيها وضع المضمر موضع المظهر وبالعكس ؟ وما موضع ضمير الشأن وموضع الالتفات وموضع الفصل والوصل وكمال الاتصال وكمال الانقطاع ؟ والجامع بين كل جملتين متعاطفتين ؟ ومحل تناسب الجمل ووجه التناسب ووجه كماله فى الحسن والبلاغة وما فيها من إيجاز وقصر وإيجاز حذف ؟ وما فيها من احتراس وتتميم ، وبين لنا موضع كل ماذكر ؟ فلم يقدر محمد بن عبد الوهاب على الجواب عن شىء مما سأله عنه .

إخبار النبى صلى الله عليه وسلم
بابن عبد الوهاب واتباعه

وقد أخبر النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم عن هؤلاء الخوارج فى أحاديث كثيرة ، فكانت تلك الأحاديث من أعلام نبوّة النبى صلى الله عليه وآلـه وسلم لأنها من الإخبار بالغيب ، وتلك الأحاديث كلها صحيحة بعضها فى صحيحى البخارى ومسلم وبعضها فى غيرهما ،

فمنها قوله صلى الله عليه وآله وسلم « الفتنة من ههنا الفتنة من هاهنا وأشار إلى المشرق »

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم « يخرج ناس من قبـل المشرق يقرءون القرآن لا يجاوز

تَراقيهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الـرمية ، لا يعودون فيه حتى يعود السهم إلى فوقــه ، سيماهم التحليق » انتهى . والفـوق بضم الفاء : موضع الوتر . وقوله صلى الله عليه وآله وسلم « سيكون فى أمتى اختلاف وفرقة ، قوم يحسنــون القيل ويسيئون الفعل ، يقرءون القـرآن لا يجاوز إيمانهم تراقيهم سيمرقون من الدين مروق السهم من الرمية لا يرجعون حتى يعود السهم إلى فوقه ، هم شرّ الخلق والخليقة ، طوبى لمن قتلهم أو قتلوه ، يدعون إلى كتاب الله وليسوا منه فى شىء ، من قتلهم كان أولى بالله منهم سيماهم التحليق » وقـولـه صلى الله عليه وآله وسلم « سيخرج فى آخر الزمان قوم أحـداث الأسنان سفهاء الأحلام يقولون قول

خير البرية يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ، فإذا لقيتموهم فاقتلوهم ، فان قتلهم أجرا لمن قتلهم عند الله يوم القيامة »

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم « أناس من أمتى سيماهم التحليق يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية هم شرّ الخلق والخليقة »

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم « يخرج ناس من المشرق يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم لا يعودون فيه حتى يعود السهم إلى فوقه سيماهم التحليق »

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم « رأس الكفر نحو المشرق والفخر والخيلاء فى أهل الخيل والإبل »

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم « من هاهنا جاءت الفتن وأشار نحو المشرق »

وقوله صلى الله عليه واله وسلم « غلظ القلوب والجفاء بالمشرق والإيمان فى أهل الحجاز »

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم « اللهم بارك لنا فى شامنا ، اللهم بارك لنا فى يمننا ، قالوا يا رسول الله : وفى نجدنا ، قال : اللهم بارك لنا فى شامنا ، اللهم بارك لنا فى يمننا ، وقال فى الثالثة : هناك الزلازل والفتن وبها يطلع قرن الشيطان »

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم « يخرج ناس من المشرق يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم كلما قطع قرن نشأ قرن حتى يكون آخرهم مع المسيح الدجال »

وفى قوله صلى الله عليه وآله وسلم « سيماهم التحليق » تنصيص على هؤلاء القوم الخارجين من المشرق التابعين لابن عبد الوهاب فيما ابتدعه ، لأنهم كانوا يأمرون من اتبعهم أن يحلق رأسه ولا يتركونه يفارق مجلسهم إذا تبعهم حتى يحلقوا رأسه ولم يقع مثل ذلك قط من أحد من الفرق الضالة التى مضت قبلهم ، فالحديث صريح فيهم .

وكان السيد عبد الرحمن الأهدل مفتى زبيد

يقول : لا يحتاج أن يؤلف أحد تأليفا للردّ على ابن عبد الوهاب بل يكفى فى الرد عليه قوله صلى الله عليه وسلم « سيماهم التحليق » فإنه لم يفعله أحد من المبتدعة غيرهم .

وكان ابن عبد الوهاب يأمر أيضا بحلق رءوس النساء اللاتى يتبعنه فأقامت عليه الحجة مرة امرأة دخلت فى دينه كرها وجددت إسلامها على زعمه ، فأمر بحلق رأسها ، فقالت له : أنت تأمر الرجال بحلق رءوسهم ، فلو أمرت بحلق لحاهم لساغ لك أن تأمر بحلق رءوس النساء ، لأن شعر الرأس للمرأة بمنزلة اللحية للرجال ، فبهت الذى كفر ولم يجد لها جوابا ، لكنه إنما فعل ذلك ليصدق عليه وعلى من تبعه قوله صلى الله عليه وآله وسلم « سيماهم

التحليق » فإن المتبادر منه حلق الرأس ، فقد صدق صلى الله عليه وسلم فيما قال .

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم حين أشار إلى المشرق من حيث يطلع قرن الشيطان ، جاء فى رواية « قرنا الشيطان » بصيغة التثنية . قال بعض العلماء : المراد من قرنى الشيطان مسيلمة الكذاب وابن عبد الوهاب . وجاء فى بعض الروايات « وبها » يعنى نجدا « الداء العضال » . قال بعض الشراح وهو الهلاك .

وفى بعض التواريخ بعد ذكر قتال بنى حنيفة : قال « ويخرج فى آخر الزمان فى بلد مسيلمة رجل يغير دين الإسلام » وجاء فى بعض الأحاديث التى فيها ذكر الفتن قوله صلى الله عليه وآله وسلم « منها فتنة عظيمة تكون فى

أمتى لا يبقى بيت من العرب إلا دخلته تصل إلى جميع العـرب قتلاها فى النار واللسان فيها أشد من وقع السيف » وفى رواية « ستكون فتنة صماء بكـماء عمياء » : يعنى تعمى بصـائـر النـاس فيهـا فلا يرون مخرجـا ويصمـون عن استماع الحق « من استشرف لها استشرفت له » وفى رواية « سيظهـر من نجـد شيطان تتزلزل جزيرة العرب من فتنته »

وذكـر العـلامـة السيد علوى بن أحمد بن حسن بن القطب السيد عبد الله الحداد باعلوى فى كتابه الذى ألفه فى الرد على ابن عبد الوهاب المسمى (جلاء الـظلام فى الرد على النجدى الذى أضل العوام) وهو كتاب جليل ذكر فيه جملة من الأحاديث ، منها حديث مروى عن

العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه عم النبىّ صلى الله عليه وسلم أسنده إلى النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم قال فيه « سيخرج فى ثانى عشر قرنا ، فى وادى بنى حنيفة رجل كهيئة الثور ، لا يزال يلعق براطمه يكثر فى زمانه الهرج والمرج ، يستحلون أموال المسلمين ويتخذونها بينهم متجرا ، ويستحلون دماء المسلمين ويتخذونها بينهم مفخرا ، وهى فتنة يعتز فيها الأرذلون والسفل ، تتجارى بينهم الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه » قال ولهذا الحديث شواهد تقوى معناه وإن لم يعرف من خرجه .

ثم قال السيد المذكور فى الكتاب الذى مر ذكره : وأصرح من ذلك أن هذا المغرور محمد

ابن عبـد الوهاب من تميم ، فيحتمل أنه من عقب ذى الخـويصرة التميمى الـذى جاء فيه حديث البخارى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنــه أن النبىّ صلى الله عليه وآلـه وسلم قال : « إن من ضئـضىء هذا [أو فى عقب هذا] قومـا يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان ، لئن أدركتهم لأقتلنهم قتـل عاد » فكـان هذا الخارجى يقتل أهل الإسلام ويدع أهل الأوثان .

ولما قتل علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه الخـوارج قال رجل : الحمد لله الذى أبادهم وأراحنا منهم ، فقال علىّ رضى الله عنه : كلا

والذى نفسى بيده إن منهم لمن هو فى أصلاب الـرجـال لم تحمله النساء وليكونن آخرهم مع المسيح الدجال .

وجاء فى حديث عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه ذكر فيه بنى حنيفة قوم مسيلمة الكذاب وقال فيه « إن واديهم لا يزال وادى فتن إلى آخر الـدهر ، ولا يزال فى فتنة من كذابهم إلى يوم القيامة » وفى رواية « ويل لليمامة ويل لا فراق له »

وفى حديث ذكـــره فى مشكـــاة المصـــابيح « سيكـون فى آخر الزمان قوم يحدثونكم بما لم تســمعــوا أنتم ولا آبــاؤكم فإياكم وإياهم ، لا يضلونكم ولا يفتنونكم »

وأنزل الله فى بنى تميم (إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون) وأنزل الله فيهم أيضا (لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبىّ)

قال السيد علوى الحداد المذكور آنفا : إن الذى ورد فى بنى حنيفة وفى ذم بنى تميم ووائل شىء كثير ، ويكفيك أن أغلب الخوارج وأكثرهم منهم ، وأن الطاغية ابن عبد الوهاب منهم ، وأن رئيس الفرقة الباغية عبد العزيز بن محمد بن سعود بن وائل منهم . وجاء عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال « كنت فى مبدأ الرسالة أعرض نفسى على القبائل فى كل موسم ، ولم يجبنى أحد جوابا أقبح ولا أخبث من رد بنى حنيفة »

قال السيد علوى الحداد : لما وصلت الطائف لزيارة حبر الأمة عبد الله بن عباس رضى الله عنهما اجتمعت بالعلامة الشيخ طاهر سنبل الحنفى ابن العلامة الشيخ محمد سنبل الشافعى فأخبرنى أنه ألف كتابا فى الرد على هذه الطائفة سماه (الانتصار للأولياء الأبرار) وقال لى لعل الله ينفع به من لم تدخل بدعة النجدى قلبه ، وأما من دخلت فى قلبه فلا يرجى فلاحه ، لحديث البخارى « يمرقون من الدين ، ثم لا يعودون فيه » .

وأما ما نقل عن بعض العلماء أنه استصوب من فعل النجدى جمع البدو على الصلاة ، وترك الفواحش الظاهرة وقطع الطريق والدعوة إلى التوحيد ، فهو غلط حيث حسن للناس فعله ،

ولم يطلع على ما ذكرناه من منكراته وتكفيره الأمة من ستمائة سنة ، وحرق الكتب الكثيرة ، وقتله كثـيرا من العلماء وخـواص الناس وعوامهـم ، واستباحة دمائهـم وأموالهم ، وإظهار التجسيم للبارى تبارك وتعالى ، وعقده الدروس لذلك وتنقيصه النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم وسائر الأنبياء والمرسلين والأولياء ونبش قبورهم ، وأمر فى الأحساء أن تجعل بعض قبور الأولياء محلا لقضاء الحاجة ، ومنع الناس من قراءة دلائل الخـيرات ومن الـرواتب والأذكار ، ومن قراءة مولـد النبىّ صلى الله عليه وآلـه وسلم ، ومن الصلاة على النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم فى المنائر بعد الأذان وقتل من فعل ذلك ، وكان يعرض لبعض الغوغاء الطعام بدعواه النبوّة ،

ويفهمهم ذلـك من فحـوى كلامـه ، ومنـع الـدعاء بعد الصلاة ، وكان يقسم الزكاة على هواه ، وكـان يعتقـد أن الإسلام منحصر فيه وفيمن تبعـه ، وأن الخلق كلهم مشركـون ، وكان يصرح فى مجالسه وخطبه بتكفير المتوسل بالأنبياء والملائكة والأولياء ويزعم أن من قال لأحد : مولانا أو سيدنا فهو كافر ، ولا يلتفت إلى قول الله تعالى فى سيدنا يحيى عليه السلام (وسيدا) ولا إلى قول النبى صلى الله عليه وآله وسلم للأنصـار « قوموا لسيدكم » يعنى سعد ابن معـاذ رضى الله عنـه ، ويمنـع من زيارة النبىّ صلى الله عليه وسلم ، ويجعله كغيره من الأمـوات وينكـر علم النحـو واللغـة والفقـه والتدريس بهذه العلوم ، ويقول إن ذلك بدعة .

ثم قال السيد علوى الحداد فى كتابه المتقدم ذكـره : والحاصل أن المحقق عندنا من أقواله وأفعـالـه ما يوجب خروجـه عن القـواعـد الإسـلامية ، لاستحـلالـه أمـوالا مجمعا على تحريمها معلومة من الدين بالضرورة بلا تأويل سائـغ مع تنقيصـه الأنبياء والمرسلين والأولياء والصـالحـين . وتنقيصهم تعمـدا كفر بإجماع الأئمة الأربعة اهـ .

وتقـدم أنـه عاش من العمر ثنتين وتسعين سنة ، لأن ولادته كانت سنة أحد عشر ومائة وألف ، وهلاكه سنة ألف ومائتين وستة ، وأرخ بعضهم وفاته بقوله : بدا هلاك الخبيث ١٢٠٦ وخلف أولادا قامـوا بالـدعـوة بعـده عبد الله

وحسن وحسين وعلى وكانوا يقال لهم أولاد الشيخ

وكان عبد الله أكبرهم فقام بالدعوة بعد ابيه وخلف سليمان وعبد الرحمن وكان سليمان متعصبا أكثر من أبيه ، فقتله إبراهيم باشا سنة ألف ومائتين وثلاثة وثلاثين ، وقبض على عبد الرحمن وبعثه إلى مصر فعاش مدة بمصر ، ثم مات بمصر .

وأما حسن بن محمد بن عبد الوهاب فخلف عبد الرحمن ، وولى قضاء مكة فى بعض السنين التى كانوا يحكمون فيها بمكة وعاش عبد الرحمن دهرا طويلا حتى قارب المائة ومات قريبا فخلف عبد اللطيف .

وأما حسين بن محمد بن عبد الوهاب فخلف أولادا كثيرين ولم يزل نسلهم باقيا إلى الآن بالدرعية ، يعرفون بأولاد الشيخ ، ونسأل الله أن يهديهم للصواب .

(لطيفة) كان رجل صالح من علماء البلدة التى تسمى بالزبير اسمه الشيخ عبد الجبار يصلى إماما فى مسجد تلك البلدة ، فاتفق أن اثنين تجادلا فى شأن هذه الطائفة بعد أن جاء إبراهيم باشا إلى الدرعية ودمرها ودمر من فيها ، فقال أحد الرجلين المتجادلين : لابد أن يرجع أمر هذا الدين كما كان وترجع هذه الدولة كما كانت ، وقال الآخر : لا يرجع أمرهم أبدا كما كان ولا ما كانوا عليه من البدعة ، ثم اتفقا على أنهما يذهبان فى غد ويصليان صلاة الصبح

خَلف الشيخ عبد الجبار وينظران ماذا يقرأ بعد الفاتحة فى الركعة الأولى ، ويجعلان ذلك فألا يحكمان به فيما اختلفا فيه فذهبا وصليا خلفه فقرأ بعد الفاتحة فى الركعة الأولى (وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون) فتعجبا من ذلك ورضيا بذلك الفأل حكما .

والله سبحانه وتعالى أعلم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

بفضل الله تعالى وببركة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تم كتاب الدّرر السنية

الفهـــــــرس

الموضـــوع	الصفحة

١٠٩٨

الموضـــوع	الصفحة


دار الغد العربي
٣ شارع دانش - العباسية
القاهـــرة


0510100